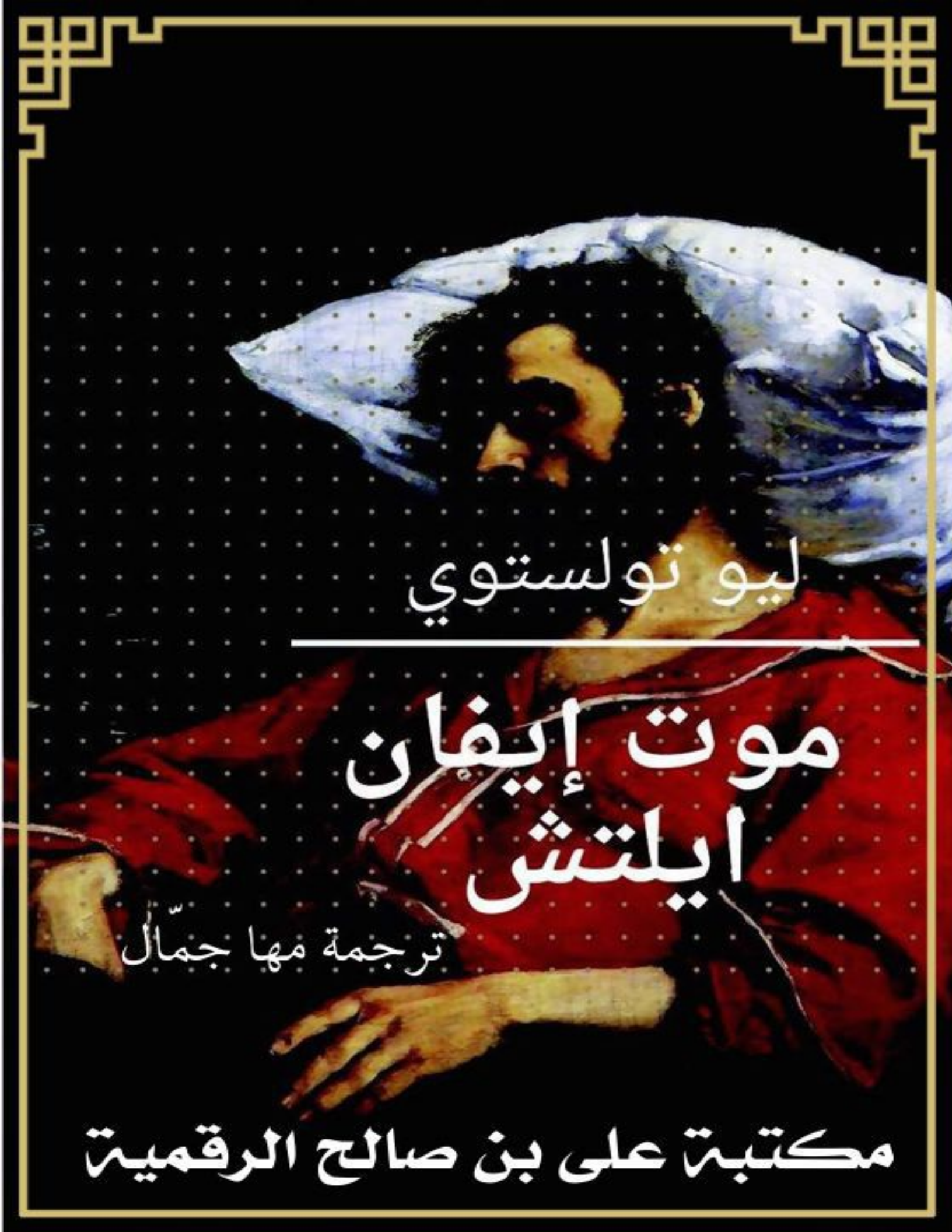

ليو تولستوي

موت إيفان ايلتش

ترجمة مها جمّال

مكتبة على بن صالح الرقمية

ليو تولستوي

موت إيفان ايليتش

رواي-ة

ترجمة مها جمّال

1886

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

- 1 -

في المبنى الواسع لقصر العدل، اجتمع النائب العام وأعضاء المحكمة، أثناء رفع جلسة محاكمة ميلفنسكي، في مكتب ايفان ايرغوفيتش شيبيك: انتهى بهم الحديث إلى قضية كراسوف الشهيرة، فأصر فيودور فاسيليفيتش بحرارة على عدم اختصاص المحكمة، وتشبّث ايفان ايرغوفيتش برأيه: أما بيير ايفانوفتش فهو لم يشارك في النقاش فأعرض عنه وأخذ يتصفح الجريدة التي حُملتْ إليه. قال:

- ياسادة، مات ايفان ايليتش!

- غير ممكن؟

- اقرأ بنفسك.

قال ذلك وهو يمد إليه الجريدة التي ماتزال تفوح برائحة حبر المطبعة.

قرأ فيها الأسطر التالية التي يؤطّرها خط أسود دقيق: تعلن «براسكوفيا فيودوروفنا غولوفين»، بمزيد من اللوعة، لذويها وأصدقائها وفاة زوجها المحبوب، ايفان ايليتش غولوغين، المستشار في محكمة الاستئناف الذي تُوفّي في 4 شباط 1882. وسيتم نقل الجثمان نهار الجمعة، الساعة الواحدة بعد الظهر.

كان ايفان ايليتش زميلاً لهؤلاء السادة الذين كانوا يحبونه كثيرة. وقد ألمّ به المرض منذ عدة أسابيع وتأكد أنه لا يمكن أن يشفى. كان مايزال يحتفظ بمركزه لكن كان من المقدر أن الكسييف، في حالة الوفاة، سيُعيّن في هذا المركز الشاغر، وسيحل «فينيكوف» أو «ستابيل» محل الكسييف. إذن عندما علم جميع الذين كانوا مجتمعين في المكتب، بموت ايفان ايليتش فكروا قبل كل شيء بالآثار التي سيتركها هذا الحدث على ترقيتهم وترقية أصدقائهم.

فكّر فيودور فاسيلييفيتش: «سأحصل الآن بكل تأكيد على مركز «ستابيل» أو مركز فينيكوف. فقد وُعِدتُ به منذ زمن بعيد، وبفعل هذه الترقية سأحصل على زيادة مقدارها ثمانمئة روبل، ماعدا نفقات المنصب.

وقال بييرر ايفانوفتش في نفسه: يجب أن أحصل الآن على نقل صهري إلى جنبنا.

وستُسرّ زوجتي بذلك كثيراً. ولن يُقال بعد اليوم أنني لاأنوي أن أفعل شيئاً لأهلها.
وقال بيير ايفانوفتش بصوت عالٍ:

- كنت أعتقد أنه لن يقوم من مرضه. خسارة كبيرةٌ!

- لكن ماذا أصابه، على الإجمال؟

- لم يستطع الأطباء تحديد مرضه؛ أو على الأصح، عالجه كلٌ منهم على طريقته. وعندما رأيته آخر مرة ظننت أنه سينجو من دائه.

- أما أنا، فلم أعده منذ الأعياد. على أني كنت أفكرُ دائماً في زيارته.

- أكانت له ثروة؟

- أظن أن لامرأته ثروة ليست ذات شأن.

- لابد من الذهاب الآن. وهما يسكنان بعيداً جداً.

- تريد أن تقول: بعيداً عنك. كل شيء بعيد عنك.

قال بيير ايفانوفتش وهو يبتسم لشيبيك:

- لايمكنه أن يغفر لي أنني بقيت في الجهة الأخرى من النهر. حينئذ أخذوا يتحدثون عن امتداد المدينة، ثم عادوا إلى الجلسة.

فضلاً عن الأفكار بصدد تعيينات القضاء وتغييراته التي قد تنتج عن هذه الوفاة، فإن الحدث ذاته، موت صديق، أيقظ، كشأنه دائماً، في جميع الذين اطلعوا على النبأ، شعوراً بالفرح: لم أمُتْ أنا، وإنما هو الذي مات.

كان كل واحد يفكر ويحسّ: هلّا نظرتم! لقد مات وأنا ما أزال أحيا! أما معارف إيفان اىلىتش المقربون، الذين يُدْعون أصدقاءه، فقد كانوا يفكرون فوق ذلك، بصورة لا إرادية، أنه مايزال عليهم أن يقوموا بواجبات من المجاملة المملّة جداً، وأنّ عليهم أن يحضروا الجناز وأنْ يُقدّموا للأرملة تعازيهم.

كان أخلص صديقين له: فيودور فاسيلييفتش وبيير ايفانوفتش.

كان بيير ايفانوفتش رفيق ايفان ايليتش في مدرسة الحقوق (1)، وكان يعتبره أسير فضله.

وبعد أن أطلع امرأته، أثناء العشاء، على موت ای‌فان ای‌ل‌ی‌تش وعن الدواعي التي تجعل ممكناً تعيين أخيها في منطقتهم، ارتدى ثيابه ومضى، دون أن يستريح، إلى منزل ای‌فان ای‌ل‌ی‌تش.

أمام درج المدخل اصطفّت عربة سيّد وعربتا جياد. في الأسفل، في البهو، قرب المشجب استند إلى الجدار غطاءُ النعش، المزيّن بالنسيج المقصّب. وبالشرابات والشرائط الفضية الملمّعة جداً. كانت سيدتان بثياب سوداء تخلعان فروتيهما. كانت إحداهما أخت ای‌فان ای‌ل‌ی‌تش، وكان بيير ايفانوفيتش يعرفها. كان ينزل الدرج زميلُ بيير ايفانوفتش، «شوارز»؛ فلما شاهده من فوق، توقّف وغمز بعينه، وكأنه يريد أن يقول له: ماعمله «إيفان ايليتش» ليس بالأمر العسير، أما نحن فكنا أَشطر».

نمّ وجه «شوارز» الذي زانه عارضان علي الطريقة الانكليزية، وكلُّ شخصه الهزيل بالملابس الرسمية، نمّ كعهده دائماً، على رصانة رشيقة؛ وهذه الرصانة التي تناقض طبعه المرح، اكتسبت هنا شيئاً مثيراً أشد إثارة. هكذا كان يفكر بيير ايفانوفتش.

ترك بيير ايفانوفتش السيدات يمررن وصعد الدرج خلفهن ببطء. لم ينزل «شوارز» وانتظره فوق. أدرك بيير ايفانوفتش لماذا: كان يريد بالطبع أن يتفق معه على المكان الذي يلعبان فيه «الوی‌ست» هذا المساء. صعدت السيدات إلى حيث الأرملة. أشار «شوارز» لبيير ايفانوفتش بحركة من حاجبيه، وشفتاه مزمومتان، ونظرته فرحة، إلى اليمين حيث غرفة الميت.

دخل بيير ايفانوفتش وهو لا يعلم جيداً كما يحدث ذلك في مثل هذه الحالة، كيف ينبغي له أن يتصرف. لم يكن يعلم سوى شيء واحد وهو أن إشارة الصليب في مثل هذه الظروف لابأس بها أبداً. لكنه لم يكن على يقين إن كان ينبغي فوق ذلك أن يحيّي الجثمان؛ فقرّر أن يوفّق بين الأمرين: إذا أنه رسم إشارة الصليب، عند دخوله، وحنى رأسه قليلاً. وفي الوقت نفسه تفحّص الغرفة، بقدر ماسمحت له بذلك حركات رأسه وذراعيه . كان يخرج من الغرفة شابان أحدهما طالب معهد، وربما كانا ابني أخي الفقيد، وهما يرسمان إشارة الصليب. وكانت امرأة عجوز تقف بلا حراك، وكانت سيّدةٌ مرتفعة الحاجبين على نحوٍ غريب تكلمها بصوت خافت. وكان المرتّلُ بسترته الرسمية وهيئته الحازمة الواثقة، يقرأ بصوتٍ عالٍ وبلهجة تستبعد كل اعتراض. وكان خازن المؤن يروح ويجيء بِخُطاً خفيفة أمام بيير ايفانوفتش وهو ينشر شيئاً على أرض الغرفة. وقد أحسّ بيير ايفانوفتش على الفور، عند رؤية حركته، برائحة خفيفة لجثة في طور التحلّل. وأثناء زيارته الأخيرة لايفان ايليتش لاحظ «جیراس‌ی‌م» هذا وهو

يقوم بمهمة الممرّض؛ وكان ايفان ايلىتش يكنّ له مودة خاصة. ظل بيير ايفانوفتش يرسم إشارة الصليب وينحني انحناءً خفيفاً باتجاه النعش والمرتّل والايقونات الموضوعة على الطاولة في زاوية من الغرفة. ثم لما بدا له أن التشوير بيديه قد دام طويلاً جداً توقّف وأخذ يتفرّس في الميّت.

كان ممدداً كما يمدّد الأموات على نحوٍ شديد الثقل، شأن الجثث. وقد غرقت أطرافه المتصلّبة في أعماق تنجيد النعش، واستراح رأسه إلى الأبد على الوسادة؛ وعرض، ككل الأموات، جبيناً أصفر شمعياً، بصدغين غائرين عاريين من الشعر، وأنفاً بارزة بدا كأنه يُثقل الشفة العليا. لقد تغيّر إيفان ايلىتش كثيراً وأصابه الهزال أيضاً منذ زيارته الأخيرة لبيير ايفانوفتش؛ لكن وجهه، ككل وجوه الأموات، غدا أجمل وأبلغ دلالة. وكان وجهه يعبّر عن أن ما ينبغي فعلُهُ قد أُنجز وأُنجز على نحوٍ حسن. وأكثر من ذلك، كان يعبّر عن لوم أو تنبيه للأحياء. بدا لبيير ايفانوفتش أن هذا التنبيه في غير محله، أو على الأقل إنه لا يعنيه شخصياً. بيد أنه أحسّ بشيءٍ كريه، فرسم بسرعة إشارة الصليب مرة أخرى، وبادر إلى النكوص واتّجه الى الباب بسرعة مفرطة، كما خُيّل إليه، خلافاً لأصول اللياقة. كان «شوارز» ينتظره في الغرفة المجاورة، منفرج القدمين، عابثاً بقبعته التي كان يمسك بها خلف ظهره. إنّ نظرةً واحدةً تُلقى على شخص «شوارز» المرح والنظيف والأنيق تكفي لإنعاش بيير ايفانوفتش. وقد أدرك على الفور أن «شوارز» فوق ذلك لا يستسلم للمشاعر المؤلمة. كانت هيئته كلها تقول: إنّ القدّاس على روح ايفان ايلىتش ليس سوى أمرٍ عارض، ومامن مبرّرٍ يصحّ معه أن نؤجل الجلسة؛ وبعبارة أخرى لاشيء يجوز أن يمنعنا، هذا المساء بعينه، من فضّ ورق اللعب وهو يُطقطِق، بينما يُرتّب الخادم على الطاولة أربع شمعات جديدة. وعلى العموم، مامن داعٍ يدعو إلى افتراض أن هذا الأمر العارض يمكنه أن يحول بيننا وبين قضاء سهرة اليوم بسرور كسائر السهرات. ولقد أَسرّ بذلك لبيير ايفانوفتش الذي كان يمرّ أمامه. واقترح عليه أن يأتي من أجل لعبة في منزل فيودور فاسيليفتش. لكن كان مقدراً بالطبع أن بيير ايفانوفتش لن يلعب بالورق هذا المساء. خرجت براسكوفيا فيودوروفتا، وهي امرأة قصيرة، سمينة، ذاهبةً عرضاً بدءاً من الكتفين حتى القاعدة، بالرغم من جميع الجهود التي تبذلها لتتحاشى ذلك، ولها حاجبان مرتفعان على نحوٍ غريب كحاجبي السيّدة التي شُوهدت قرب النعش، خرجت من شقتها مع سيدات أخريات، وأدخلتهن غرفة الميت وقالت:

- سيبدأ الجنّازُ؛ هيّا ادخلوا، أرجوكم.

انحنى «شوارز» على نحوٍ غير واضح، ولم يتحرك؛ ومن البديهي أنه لم يقبل هذه الدعوة ولم يرفضها. تنهّدت براسكوفيا فيودوروفنا حين تعرّفت بيير ايفانوفتش، فدنت منه وأمسكت بيده وقالت:

- أنا أعلم أنك كنت صديقاً حقيقياً لإيفان ايلّيتش.

ونظرت إليه منتظرةً حركة تطابق أقوالها. وكان بيير ايفانوفتش يعلم أنه كما كان ينبغي له أن يرسم هناك إشارة الصليب، فعليه الآن أن يشدّ على يدها وأن يتنهّد ويقول: «صدقيني...» وهذا ما فعله. وإذ فعله أحسّ أن النتيجة المرغوبة قد بلغت: أحس أنه انفعل وأنها أيضاً انفعلت.

قالت الأرملة:

- تعال معي قبل بدء الجنّاز (2): فعندي ما أقوله لك. أعطني ذراعك.

أعطاها ذراعه واتجها إلى شقتها ومرا أمام «شوارز» الذي رمى بيير ايفانوفتش بطرفة عين مشفقة.

كانت نظرته الحادة تقول: ها قد طارت منك لعبةُ «الهويست». فلا تحقد علينا إذا اخترنا لاعباً رابعاً. ربما جئتَ لتكون الخامس إذا صرتَ حراً...

تنهد بير ايفانوفتش تنهداً أكثرُ عمقاً، وأكثر حزناً، وشدّت براسكوفيا فيودوروفنا على ذراعه اعترافاً بالجميل. دخلا صالونها المفروش بالكريتون الوردي والذي كان يضيئُهُ مصباحٌ بشكل ضعيف؛ جلسا قرب الطاولة، جلست هي على الأريكة، وجلس هو على غرقة منخفضة هبطت نوابضُها تحت ثقله. أرادت براسكوفيا فيوردوروفنا أن تعرض عليه أن يتخذ له مقعداً آخر، لكنّها رأت هذا العرض في غير مكانه وهي في مثل وضعها، فلم تقل شيئاً. وعندما جلس بيير ايفانوفتش على النمرقة تذكّر أنّ إيفان ايلّيتش قد رتّب هو نفسه هذا الصالون وأنه استشاره بصدد هذا الكريتون الوردي ذي الأوراق الخضراء. وعندما مرّت الأرملة قرب الطاولة لتجلس على الأريكة

(كان الصالون مليئاً بالأثاث وبمختلف التحف) علق حرير طُرحتها السوداء بحَفْر الطاولة، عندئذ نهض بيير ايفانوفتش ليخلص طرحتها فأخذت نوابضُ النمرقة تتحرّك وتدفعه. خلّصت الأرملة حرير الطرحة بنفسها، وعاد بيير ايفانوفتش إلى الجلوس وهو يسحق النمرقة المتمرّدة مرة أخرى. لكن براسكوفيا لم تتخلّص تماماً؛ نهض بيير ايفانوفتش من جديد، ومن جديد اضطربت النمرقة وطقطقت. وعندما انتهى كل شيء،

أخرجت منديلاً رقيقاً ونظيفاً وأخذت تبكي. لكن حادثة الطرحة والصراع مع النمرقة برّدا بيير ايفانوفتش الذي ظل جالساً، متجهّماً.

هذا الوضع المُحرج قطعهُ «سوكولوف» مدىرُ خدم إيفان ايليتش الذي جاء يُعلِمهما أنّ الأرض التي اختارتها في المقبرة براسكوفيا فيودوروفنا تكلّف مئتي روبل. كفّتْ عن البكاء ونظرتْ إلى بيير ايفانوفتش نظرة الضحيّة فقالت له بالفرنسية: إنّ ذلك كله يؤلمها. لم ينبس بيير ايفانوفتش بكلمة، وبدرتْ منه حركة تعبّر عن قناعته العميقة أن الأمور لا يمكن أن تكون غير ذلك.

قالت بلهجة شهمة ومهدودة في الوقت نفسه: دخِّنْ.

وأخذت تحادث سوكولوف حول سعر الأرض.

سمعها بيير ايفانوفتش، وهو يُشعِل سيجارته، تناقش بالتفصيل مختلف الأسعار، وتختار في النهاية الأرض التي أرادتْ شراءها. وبعد أن انتهت من هذه المسألة أعطت تعليماتها بصدد المرتلين. خرج سوكولوف.

قالت لبيير ايفانوفتش وهي تدفع الألبومات التي كانت على الطاولة:

- إني أفعل كلّ شيء بنفسي.

وعندما لاحظت أن رماد السيجارة يوشك أن يوسخ الطاولة قدّمت على الفور منفضة سجاير لبيير ايفانوفتش، وأردفت:

- أرى من النفاق التأكيد على أن ألمي يمنعني من الاهتمام بالمسائل العملية. على العكس، إذا كان هناك شيء ممكن - لا أقول - أن يعزّيني... بل على الأقل أن يسرّي عنّي... فهو بالضبط أن اهتم به.

وأخرجت مرة أخرى منديلها، وبدت كأنها ستجهش بالبكاء من جدىد، لكنها سيطرت على نفسها فجأة وكأنها بذلت جهداً عنيفاً لذلك وقالت بهدوء:

- عليّ أن أحدثك في أمرٍ خطير.

انحنى بيير ايفانوفتش وهو يجهد في تثبىت نوابض النمرقة التي بدأت على الفور تهتزّ.

- لقد تألم آلاماً مبرحة في الأيام الأخيرة.

- تألم كثيراً؟

- أوه! بشكل فظيع. لم يكفّ عن الصراخ لا خلال الدقائق الأخيرة فقط، لكن خلال ساعات كاملة. لقد صرخ دون انقطاع ثلاثة أيام متوالية. لم يكن ممكناً تحمّل ذلك. لاأدري كيف استطعت أن أقاوم ذلك. كنّا نسمعه عبر ثلاثة أبواب. أوه! كم قاسيتُ!

سال بيير ايفانوفتش:

- لكن هل كان بكامل وعيه؟

همستْ:

- نعم، حتى آخر لحظة. ودّعنا قبل ربع ساعة من النهاية، بل وطلب إخراج «فولوديا».

إن آلام رجلٍ عرفه منذ الطفولة معرفةً حميمة، رجل أصبح فيما بعد شريكه في لعب الورق، هذه الفكرة ملأت بيير ايفانوفتش فجأة بالرعب، مع أنه شاعر بنفاقه ونفاق هذه المرأة. رأى من جديد تلك الجبهة، وذلك الأنف الذي يسحق الشفة العليا، فخاف على نفسه.

وفكر: «ثلاثة أيام من الآلام المبرحة ثمّ الموت. لكن ذلك يمكن أن يقع لي أيضاً، في كل لحظة، وفي الحال» واستولى عليه الخوف. لكنه سرعان ما أنجدَتْه هذه الفكرة العادية جداً، دون أن يتبيّن ذلك، أن ذلك كله وقع لإيفان ايلّيتش لا له، وأنّ ذلك لن يقع ولا يمكن أن يقع له، وأنه إذا فكّر في هذه الأشياء، استسلم لتلك الأفكار السوداء، وهو ماينبغي أن يتحاشاه، كمّا عبر عن ذلك بوضوح وجه «شوارز». وبعد أن خطرت لبيير ايفانوفتش هذه المحاكمة هدأ روعه واستفهم باهتمام عن تفاصيل موت ايفان ايلّيتش، وكأنّ الموت شيء لا يمكن أن يقع إلا لإيفان ايلّيتش ولا يعنيه بشيءٍ هو، بيير ايفانوفتش.

بعدَ أن روَتْ براسكوفيا فيودوروفنا جميع تفاصيل الآلام الجسدية والفظيعة حقاً والتي تحمّلها ايفان ايلّيتش (وهذه التفاصيل لم يعرفها بيير ايفانوفتش إلا بمقدار ما آلمت أعصاب أرملته) رأت من البديهي أن الوقت قد حان للكلام على الأعمال.

- آها بيير ايفانوفتش، ما أشق ذلك، ما أشد مشقّة ذلك وعادت إلى البكاء. تنهّد بيير ايفانوفتش وانتظر حتى تمتخط، حتى إذا امتخطتْ قال:

- صدّقيني...

عندئذ استأنفت كلامها وعرضت تلك القضية التي كانت بالطبع تشغلها فوق كل شيء: كان المطلوب معرفة ما ينبغي الشروع به للحصول على مال من الخزينة بمناسبة وفاة زوجها. تظاهرتْ بأنها تسأل بيير ايفانوفتش المشورة بصدد النفقة؛ لكنّه رأى أنها كانت تعلم كل شيء حتى أدنى التفاصيل، وخيراً منه، عمّا يمكن أن تنال من الخزينة بمناسبة هذا الحادث. لكنّها كانت تريد أن تعلم إن كان من الممكن أيضاً أن تحصل على بعض المال الإضافي. حاول بيير ايفانوفتش أن يعثر على وسيلة ما للوصول إلى ذلك، ولكنّه بعد أن فكّر وبعد أن لام، على سبيل المجاملة، الحكومة على شحّها، أعلن أن لا حيلة له في ذلك. حينئذْ تنهدت واتّضح أنها تفكر بالوسيلة التي تتخلّص بها من زائرها. أدرك ذلك فأطفأ سيجارته، ونهض، وشدّ على يدها، وخرج من الغرفة.

في غرفة الطعام حيث رأى الساعة الجدارية التي عثر عليها اىفان اىلىتش بفرح غامر لدى بائع سلع من سقْط المتاع. صادف الكاهن وبعض المعارف الذين وصلوا لحضور الجنّاز، ورأى أيضاً فتاةً جميلةً جداً، ابنة ايفان اىلىتش، التي كان يعرفها. كانت بثياب سوداء. وكانت قامتها الرشيقة تبدو أرشق. كانت ملامحها متجهّمة، حازمة، بل وغضبى. حيّت بيير ايفانوفتش وكأنه مذنب بشيء ما. وخلفها، كان يقف فتى غني، بادٍ غضبه أيضاً، هو قاضي التحقيق، خطيبها، كما قِيل، وكان بير ايفانوفتش يعرفه أيضاً. حيّاهما الاثنين تحيةً كئيبة وتهيّأ لدخول غرفة الميّت، حين ظهرَ من تحت الدرج، طالب معهد صغير، هو ابن ايفان ايليتش الذي كان يشبه أباه شبهاً مدهشاً. كان الابنُ اىفان اىلىتش كما تذكّره بيير ايفانوفتش في مدرسة الحقوق. كانت عيناه حمراوين لفرط ما بكى وكانتا تعبّران هذا التعبير الذي غالباً ما نجده في عيون الفتيان الفاسدين أبناء الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. تجهّم لدى رؤيته وبدا عليه الارتباك والعُبوس في آنٍ واحد. حيّاهُ بيير ايفانوفتش بإيماءة من رأسه ودخل غرفة الميت. بدأ القدّاس: الشموع والتنهّدات والدموع والنحيب ورائحة البخور... ظلّ بيير ايفانوفتش واقفاً، مقطّب الحاجبين، مثبتاً نظرته بقدميه. لم يرفع مرّة واحدة نظره إلى الجثمان، ولم يُسلّم نفسه للمشاعر الموهِنة وانصرف بين أوائل المنصرفين.

كان البهوُ خالياً. خرج موزّع المؤن مسرعاً من غرفة الفقيد، ورمى بذراعيه القويتين يمنةً ويسرة جميع الفرويات ليعثر على فروية بيير ايفانوفتش ومدّها إليه:

خاطبه بير ايفانوفتش ليقول شيئاً ما:

- أترى، ياصاحبي جيراسيم؟ ما أعظم المصيبة!

أجاب جيراسيم وهو يكشف عن أسنانه البيضاء، المتراصّة، أسنان الفلاح:

- هذه هي مشيئة الله.

فَتح الباب بحركة سريعة، شأنه شأن الرجل الذي أثقلته أشغاله. ونادى الحوذي، وساعد بيير ايفانوفتش على صعود العربة وقفز إلى درج المدخل، مسرعاً، ليجد، كما يبدو، مهمةً أخرى تشغله أيضاً.

أحس بير ايفانوفتش بسرور خاص في تنشّق الهواء النقي بعد روائح البخور والجثة والفينول.

سأله الحوذي:

- أين ينبغي أن أذهب؟ - لم يتأخر الوقت، وسأذهب إلى منزل فيودور فاسيلييفتش.

بلغ المنزل. ووجد اللاعبين وهم ينهون جولتهم الأولى، بحيث استطاع أن يشارك في اللعب كلاعب خامس.

---

(1) مدرسة الحقوق: مؤسسة ارستقراطية في بطرسبرج.

(2) الجنّاز: كانت العادة أن يقام، في اليوم الذي يسبق الدفن، جنّازٌ قصير في منزل الميت وأمام الجثمان الموضوع في تابوت مكشوف.

كانت قصة ايفان ايليتش من أبسط القصص، وأكثرها عادية، وأشدها فظاعة.

لقد مات اىفان اىلىتش، المستشار في محكمة الاستئناف، في سن الخامسة والأربعين. وكان ابن موظف قضى خدمته في بطرسبرج، في وزارات شتّى، وبلغ ذلك الوضع الذي يبدو فيه بوضوح أن الذين بلغوه عاجزون عن ملء أية وظيفة ذي شأن، لكنهم لايمكن أن يُطرَدوا بسبب خدمتهم الطويلة ودرجتهم. فهم يحصلون إذن على مراكز صورية ومرتّبات غير صورية بتاتاً، تتراوح بين ستة آلاف روبل وعشرة آلاف ويحتفظون بها حتى شيخوختهم.

كذلك كان المستشار الشخصي «اىلىا اىفيموفتش غولوفين» العضو الذي لا حاجة إليه في عدة إدارات لا حاجة إليها.

أنجب ثلاثة أولاد، ثانيهم اىفان اىلىتش. سلك الأكبر مهنة كمهنة أبيه، لكن في وزارة أخرى، واقترب من ذلك الوضع الذي تثبت فيه مرتبات الموظفين بقوة العطالة وحدها. وكان الثالث مخفقاً، فلم يُوفّق في مختلف أعماله وعمل في سكة الحديد. وكان أبوه واخوته وأزواجهم لا يتحاشون فقط التقاءه، لكنهم لم يكونوا يتذكّرون وجوده، ما لم تكن هناك ضرورة مطلقة. تزوجت أخت اىفان اىليتش البارون «غريف» وهو موظف من بطرسبرج كأنه حموها. كان ايفان ايليتش فذاً في الأسرة. كان أقل برودة ودقة من الأكبر، وأقل اندفاعة من الأصغر. وكان في الوسط بينهما: رجلاً ذكياً، حيوياً، مقبولاً ومستقيماً، درسَ في مدرسة الحقوق مع أخيه الأصغر. وبينما لم يستطع هذا أن يُنهي تعليمه وطُرد من الصف الخامس، أنهى اىفان اىلىتش دروسه بتفوّق. ومنذ مدرسة الحقوق ظهر كما كان دائماً: رجلاً موهوباً، مرحاً، اجتماعياً، لكنه كان يؤدّي دائماً وبصرامة ما يعتبره واجباً؛ وكان الواجب عنده ما ىعتبره رؤساؤه واجباً. لم يكن يتذلّل وهو صبي، ولم يتذلّل فيما بعد؛ لكنه كان منذ مستهلّ شبابه، يحسّ بانجذابه إلى الأشخاص الذين يشغلون مراكز اجتماعية رفيعة، شبيهاً بالذبابة التي يجتذبها النور؛ كان يتمثل تصرّفاتهم وتصوّراتهم للحياة ويُصادقهم. وقد مرّت انجذابات الطفولة والصبا دون أن تترك فيه آثاراً عميقة. أسلم نفسه لملذّات الحسّ،

وللغرور، وفيما بعد، في أواخر دراسته، لليبيراليّة، لكنه أمسك نفسه ضمن بعض الحدود التي حددها له ذوقه الطبيعي.

ولما كان في مدرسة الحقوق ارتكب أعمالاً بدت له دنيئة، وكان يشمئزّ منها حتى وهو يقوم بها. لكنّه عندما شاهد، فيما بعد، أن أناساً في المراكز العليا يرتكبون الأعمال نفسها ولا يعدّونها سيئة، نسيها تماماً دون أن يراها حسنة، ولم تعد ذكراها تعذّبه.

تخرّج من مدرسة الحقوق بمرتبة الفئة العاشرة (1). وتلقى من أبيه المال الضروري لتجهيزه الكامل، وأوصى على بزة من عند «شارمر»، وعلّق بسلسلته مداليةً نُقش عليها المثل اللاتيني: "توقّع النهاية»، وودّع المدير والأساتذة، وتعشّى مع أصدقائه عند «دونون»، وتزود بحقيبة جميلة وجديدة، وبثياب داخلية، وملابس، وبلوازم الزينة، وبموس الحلاقة، وبمعطف السفر، - أوصى على ذلك كله واشتراه من خير المخازن - وسافر إلى المقاطعة حيث عُيّن بفضل والده، موظفاً لمهمات خاصة لدى المحاكم (2).

في المقاطعة، توصّل ايفان ايليتش مباشرةً إلى أن يُوجِد لنفسه وضعاً سهلاً ومقبولاً كوضعه الذي ضمنه بمهنته، وكان في الوقت نفسه يلهو لهواً ساراً ومحتشماً. وكان رؤساؤه يرسلونه أحياناً ليفحص المناطق؛ كان يتصرف دائماً بكرامة، إزاء من هم فوقه ومن هم دونه على حدٍ سواء، ويقوم بالمهمّات التي تُعهد إليه والتي تتعلق بالطوائف المنشقّة بدقّة وأمانة صارمتين لا يمكنه هو نفسه إلا أن يفخر بهما.

بالرغم من شبابه وطبعه المرح، كان متحفظاً أشدّ التحفظ في قضايا الخدمة، رسمياً بل وقاسياً؛ لكنه كان يبدو في المجتمع بشوشاً، خفيف الروح، لبقاً، رقيقاً، طيّب الخُلق، كما كان يقول عنه الحاكم وزوجته وكان يتردّد عليهما.

وكانت له في المقاطعة علاقة بسيدة ارتمت على هذا الشاب الأنيق؛ وكانت له مغامرة غرامية مع تاجرة قبّعات. كما حدث له أن مجن مع مرافقين عسكريين عابرَين و قصد برفقتهم بعد العشاء شارع متطرّفاً. وحدث له أن تملّق رئيسه وزوجة رئيسه؛ لكنّ ذلك كله طُبِع بطابع نبيل، متميّز إلى حدٍ لا يمكننا معه أن نصفه بقسوة: «يجب أن نغفر للشباب طيشهم»، كما يقول المثل الفرنسي وكانت هذه الأشياء تُعْمل بأيدٍ نظيفة، وثيابٍ جديدة، وصحبةٍ حسنة، على الخصوص؛ ومن ثمّ، بموافقة الأشخاص الرفيعي المكانة.

خدم ايفان ايليتش هكذا خمس سنوات، ثم خدم في المؤسسات القضائية الجديدة حيث كانت تحتاج إلى رجالٍ جُدُد.

كان ايفان ايلّيتش أحد هؤلاء الرجال الجدد.

عُرض عليه مركز قاضي التحقيق فقبله، مع أن ذلك أجبره على الذهاب إلى حكومة أخرى، وقطع العلاقات التي انشأها، وخلق علاقات أخرى. رافقه أصدقاؤه إلى المحطة وأهدوه علبة سجائر فضية؛ صوّرت الجماعة كلها، والتحق ايفان ايلّيتش بمنصبه الجديد.

بدا ايفان ايلّيتش، بصفته قاضياً للتحقيق، كما ينبغي للقاضي أن يكون، دقيقاً، ماهراً في فصل قضايا الخدمة عن العلاقات الخاصة وتصرّف بالجدارة نفسها عندما كان في مهمّة غير عادية بجنب الحاكم. بل إنّ وظائف قاضي التحقيق ظهرتْ لايفان ايلّيتش أكثر تشويقاً وجذباً من التي كان يقوم بها سابقاً. كان يجد اللذة فيما مضى في أن يمر، خفيف الخُطَا، ببزته التي من عند «شارمر»، أمام ذوي الحاجات والموظفين المرتجفين الذين كانوا ينتظرون المقابلة ويحسدونه على أنه يستطيع أن يدخل مباشرة مكتب الحاكم ويجلس إلى طاولته ليشرب الشاي ويدخن. لكن عدد الأشخاص التابعين لمشيئته كان قليل الأهمية: كانوا، في معظمهم، مفوّضي شرطة ومنسّقين عندما كان يرسل بُمهمة: وكان يُحبُّ كثيراً أن يُعامل بلطفٍ، وكرفيق، هؤلاء التابعين له؛ كان يُجب أن يشعرهم أنه يستطيع أن يسحقهم، فيعاملهم ببساطة معاملة الصديق. لكن هؤلاء الناس كانوا قِلّة. أما الآن، وبعد أن أصبح قاضي تحقيق، فقد أخذ يحسّ أنهم جميعاً، دون أيّ استثناء، حتى أكثر الشخصيات أهمية وكبرياء، وأنه يكفيه أن يكتب بضع كلمات على ورقة بِعنوانه حتّى يؤتى بأية شخصية مهمّة أو متكبّرة باعتبارها متّهمة أو شاهدة مجبرة على الوقوف إذا لم يدعُها هو، ايفان ايلّيتش، إلى الجلوس، ومجبرة على الإجابة عن أسئلته. لكن ايفان ايليتش لم يتعسّف قط في استخدام سلطته. على العكس، كان يبذل وسعه في تلطيف الأشكال. بيد أن الشعور بهذه السلطة وإمكان تخفيفها كانا يكوّنان في نظره الأهمية الرئيسية والجاذبية لوظيفته الجديدة. ولقد اكتسب ايفان ايلّيتش بسرعة، أثناء قيامه بوظيفته في تحقيقه في القضايا الجنائية، هذا النهج الذي يقوم على تنحية جميع الظروف الغريبة عن الخدمة، وعلى إعطاء كل قضية، مهما تكن معقدة، مظهراً تكون معه صالحةً لأن يُعبّر عنها على الورق، بما أن آراءه الشخصية مستبعدةٌ، مع حرصه على أن تُراعى جميع ات. كان هذا الشيء جديداً كل الجدّة. كان من الأوائل الذين طبقوا أنظمة 1864 (3)
.

في المدينة التي كان يشغل فيها مركز قاضي التحقيق، عقد علاقات جديدة، واتّخذ

هيئة جديدة، وغيّر لهجته. ظلّ على مسافة من السلطات الإدارية، وخلف حلقةً من الأصدقاء بين القضاة والنبلاء الأغنياء الذين يقطنون المدينة: أخذ ينتقد الحكومة انتقاداً خفيفاً وعُدّ ليبيرالياً معتدلاً، رجلاً ذا أفكار على شيءٍ من التقدّم. ولقد كفّ عن حلق ذقنه وترك لحيته تطول [(4)](#) كما يحلو لها، دون أن يغيّر، مع ذلك، شيئاً من أناقة ملبسه.

مرّت حياة ايفان ايليتش في مقرّه الجديد، بسرورٍ عظيم؛ فَالوسط الناقدُ الذي دخله كان موحّداً توحّداً كبيراً؛ ومُرتّباته أكبر من ذي قبل؛ ثم كانت هناك متعة أخرى هي «الهويست». لقد أخذ يلعب بالورق، وبما أنه كان يلعب بمهارة وبمرح، مع الحذر، فإنه كان يربح دائماً تقريباً.

بعد سنتين من إقامته في هذه المدينة، تعرّف على المرأة التي ستغدو امرأته. كانت «براسكوفيا فيودوروفنا ميكىل» أكثر الفتيات سحراً وذكاءً وتألّقاً في تلك الحلقة التي ينتمي إليها ايفان ايلىتش. وبين التسليات التي أوجدها لنفسه ليستريح من مشاغله كقاضٍ للتحقيق، تلك الصلات البهجة، السارة، التي أقامها مع براسكوفيا فيودوروفنا.

ولما كان ما يزال مرتبطاً بالحاكم، رقص كثيراً. أما عندما أصبح، فيما بعد، قاضياً للتحقيق فلم يكن يرقص إلا استثناءً. كان يرقص كأنه يقول: إني وإن أكن قاضياً من الفئة الخامسة، فإني أستطيع أن أُدلّل على أني لا أقلّ عن غيري، فيما يتعلق بالرقص. وهكذا كان يرقص أحياناً، في آخر السهرة، مع براسكوفيا فيودوروفنا! وأثناء هذه الرقصات فاز بقلبها. غدت عاشقة له. لم يكن في نيته أن يتزوج، لكن عندما أُغرمت به. طرح على نفسه بصراحة السؤال التالي: لماذا لا أتزوّج؟

كانت براسكوفيا فيودوروفنا من أسرة نبيلة محترمة؛ لم تكن بشعة وكانت تملك شيئاً من الثروة. كان بوسع ايفان ايلىتش أن يطمح بامرأة أكثر تألّقاً، لكن هذه كانت مع ذلك شريكاً حسناً. كان لايفان ايلىتش مرتّبه وكان يأمل أن يكون لها دخلُها المعادل. كانت الفتاة لطيفة جداً، مقبولةً، ملائمة جداً، ومن أسرة كريمة.

إن القول بأن ايفان ايليتش تزوّج لأنه أُغرم بخطيبته ولأنه وجد أن ميولها تتوافق توافقاً تاماً مع ميوله، قولٌ خالٍ من الصحة كقولنا إنه تزوّج لأن الناس الذين من عالمه وافقوا على هذا الزواج.

وتزوّج ايفان ايلىتش.

مرّ الزواج نفسه، والأزمنة الأولى من الحياة الزوجية بِمداعباتها وأثاثها الجديد، وَأوانيها الجديدة، وبياضها الجديد، بسرورٍ عظىم حتّى حَبَل براسكوفيا فيودوروفنا، بحيث أن ايفان ايليتش قال في نفسه إن الزواج لا يقتصر على عدم تعكيره هذه الحياة السهلة، اللطيفة، الفرحة، الصحيحة دائماً، التي يقرّها المجتمع، والتي هي الحياة الوحيدة التي يعتبرها ايفان اىلىتش ممكنة، بل إن الزواج سيجعل هذه الحياة أكثر سروراً. لكن ها إن الأشهر الأولى من حبل براسكوفيا فيودوروفنا تشهد حدوث شيء جديد، كرىه، مؤلم وغير لائق، يمكن توقّعه، ولا يمكن التخلص منه.

لقد أخذت امرأته، دون أي داعٍ - كما خُيِّل إلى ايفان ايليتش - ومن كل قلبها، كما كان يقول، تعكّر مجرى حياته المقبول و الصحيح: بدت غىرى دون مبرر، وطلبت إليه أن يُعني بها باستمرار، وسعت إلى مماحكته وشاحنته مشاحنات كريهة وفظّة.

في البداية، كان ايفان ايليتش يرجو أن يتفادى مُزعجات هذا الوضع بموقفه المتجرّد والصحيح الذي كان ناجحاً حتى الآن في حياته: تظاهر بتجاهل سوء مزاج امرأته وظل يعيش عيشة خفيفة بهجة كسابق عهده؛ كان يدعو أصدقاءه إلى لعب الورق عنده، كان يذهب إلى النادي أو إلى منازل زملائه. لكن امرأته شرعت، ذات يوم، تسبه سبًّا غليظاً، وظلت تخاصمه بعنفٍ شديد كلما رفض الخضوع لمتطلباتها حتى لقد ارتعب ايفان اىلىتش من ذلك. كان واضحاً أنها قرّرت بحزم الاستمرار في ذلك ما لم يخضع، أي ما دام لم يرتضِ البقاء في البيت، وما دام لم يضجر فيه كما تضجر هي. أدرك أن حياة الأسرة - مع زوجته على الأقل - لاتجعل الحياة دائماً أكثر سروراً وملاءمة، بل إنها، على العكس، تعكّر انسجامها، ومن ثمّ كان لابد من حماية الذات إزاء عناصر التعكير هذه.

فكّر اىفان اىليتش في حماية نفسه. الشيء الوحيد الذي كان يوهم براسكوفيا فيودوروفنا كانت مشاغل زوجها؛ ولذلك أخذ اىفان اىلىتش يقاوم امرأته بالتذرّع بواجبات أعبائه، محافظاً هكذا على استقلال عالمه الخاص.

برزت ضرورة الاستقلال هذه بروزاً أكبر بعد ولادة ولدهما، أثناء المحاولات غير المجدية للإرضاع وأثناء أمراض الأم والطفل الحقيقية والوهمية، وهي أمراض كانت تقتضي تدخل ايفان اىلىتش وإن كان لايفهم شيئاً منها.

كلما كانت امرأة ايفان ايليتش تغدو أكثر نزقاً وتطلّباً، كان يحوّل كل اهتمام حياته أكثر فأكثر إلى أعمال خدمته. كان يزداد حبًّا لِلمشاغله ويغدو أعظم طموحاً.

وسرعان ما أدرك، بعد مُضيّ نحو سنة من زواجه، أن حياة الأسرة، وإن كان لها بعض المزايا، إلا أنها شيء شديد التعقيد، ومؤلم جداً، وعليه أن يقف إزاءها موقفاً محدّداً بدقة، شأنه إزاء خدمته، لكي يتسنّى له القيام بواجبه، أي لكي يتسنّى له أن يحيا حياةً صحيحة، وكما يوافق عليها المجتمع.

قاعدة السلوك هذه، إزاء حياته الأسرية، أفلح ايفان ايليتش في تهيئتها. وكان لا يتطلب من الأسرة إلا رغد العيش الذي يمكن أن تمنحه إياه: المائدة، السرير، نظام المنزل، وفوق كل شيء، تلك اللياقة التي يحدّد أشكالها الرأي العام. كان يود لو يلقي أيضاً المجاملة والمرح؛ فإذا حصل عليهما اعترف بحسن الصنيع، أما إذا وجد معارضة، وسوء مزاج، لجأ فوراً إلى عالمه الخاص، إلى مشاغله، فأحس فيها بالرضا.

كان ايفان ايليتش يُعدُّ موظفاً ممتازاً، وبعد مضي ثلاثة أعوام، عُيِّن وكيلاً للنيابة. إنّ واجبات هذا العبء الجديدة، وأهميتها، وقدرته على إخطار أيّ كان وإيداعه السجن، والمرافعات التي عليه أن يلقيها أمام الجمهور، ونجاحاته كخطيب، كل ذلك زاد من تعلّقه بخدمته.

وجاءه أولاد آخرون أيضاً؛ غدت براسكوفيا فيودوروفنا أشدّ نزقاً ومشاكسة؛ لكن قاعدة السلوك التي اصطفاها ايفان ايليتش إزاء أسرته جعلته ممتنعاً تقريباً على تقريع امرأته.

بعد إقامة سبع سنوات في هذه المدينة، عُيِّن ايفان ايليتش نائباً عاماً في حكومة أخرى. فانتقل إليها. لكنّ المال لم يتوافر له، ولم يرق المكان لبراسكوفيا فيودوروفنا. ارتفع مرتب ايفان ايليتش عن ذي قبل، لكن الحياة كانت أغلى، وفضلاً عن ذلك فقد مات اثنان من الأولاد وغدت الحياة لا تطاق أكثر مما كانت عليه.

جعلت براسكوفيا فيودوروفنا من زوجها مسؤولاً عن جميع المصائب التي حلّت في إقامتها الجديدة. إن معظم المحادثات التي جرت بين الزوج والزوجة، ولا سيما عندما تعلّق الأمر بتربية الأولاد، كانت تحيي ذكرى الخصام القديم وتجرّ إلى مناقشات جديدة. وفي لحظة نادرة كان العشق يسوق الزوجين أحدهما إلى الآخر، لكن هذه اللحظات كانت قصيرة الأمد. كانت هذه اللحظات جُزيرات يسيران على شواطئها زمناً لِيغرقا بعدها في بحر كرههما الكامن الذي كان يتجلّى في البُعد الذي يشعر به كلٌّ منهما تجاه الآخر. كان هذا البعدُ جديراً بأن يحزن ايفان ايليتش لو اعتقد أنه غير طبيعي؛ لكنه لم يكن طبيعياً فحسب بل إن طريقته في التصرف كانت تتجه بالذات إلى

هذا الهدف. كان هدفه يقوم دائماً على التخلص أكثر فأكثر من المضايقات الأسرية وعلى أن يعزو إليها طابعاً غير مؤذٍ وسليماً. وكان يتوصّل إلى ذلك بتقليص الزمن الذي يقضيه في أسرته قدر المستطاع. فإذا اضطر إلى أن يعود إلى المنزل حمى نفسه من الهجوم بفضل حضور الغرباء. ثم إن ايفان ايليتش كانت له مهمّاته، وهذا هو الشيء الرئيسي. كان اهتمامُ حياته كله منصبًّا على ذلك وكان هذا الاهتمام يستغرقه استغراقاً تاماً. كان شعوره بسلطته، والإمكان الذي هو فيه أن يدمّر أيًّا كان ويقضي عليه، وأمارات الاحترام التي كان يُقابَل بها في المحكمة، ومراعاة مرؤوسيه له، ونجاحاته بين من هم فوقه ومن هم دونه، ولا سيما مهارته في الأعمال، وهي مهارة تبيّنها هو نفسه، كل ذلك كان يفتنه ويملأ حياته، مع الهويست، والولائم وأحاديثه مع زملائه. هكذا كانت إذن تجري حياة ايفان ايليتش كما يليق برأيه، أي بسرورٍ وعلى نحو صحيح.

عاش هذه العيشة سبع سنوات. كان عمر ابنته البكر ستة عشر عاماً. فَقَدَ ولداً آخر؛ وبقي له صبي، طالب معهد كان موضوعاً لِنقاشاتٍ مستمرة. كان ايفان ايليتش يريد أن يدرس في مدرسة الحقوق، لكن براسكوفيا فيودوروفنا أدخلته المعهد، بروح المشاكسة. وكانت ابنته تدرس في المنزل وتتقدّم في دروسها؛ وكان الولد مجتهداً أيضاً.

---

(1) كان أفضل الحائزين على شهادة مدرسة الحقوق (وكذلك الحائزون على شهادة كلية الحقوق) يدخلون الخدمة المدنية بهذه المرتبة.

(2) موظف... لدى الحاكم: هو موظف شاب مرتبط بحاكم المقاطعة يكلّف بمهمات شتّى.

(3) أنظمة 1864: الأنظمة المتعلقة بالمؤسسات الجديدة والإجراءات القضائية الجديدة.

(4) كان على الموظفين، في عهد نيقولا الأول، أن يكونوا حليقين؛ ثم سُمح لهم في عهد الاسكندر الثاني، بدءاً من 1860، أن يتركوا لحاهم تطول.

هكذا عاش ايفان ايليتش على مدى سبعة عشر عاماً من زواجه. كان نائباً عاماً منذ زمن طويل، وقد رفض عدّة مرات تغييره انتظاراً لمنصب أفضل. عندما وقع فجأة حادث كرىه كاد يعكّر هذه الحياة الوادعة من أعماقها. كان ايفان ايليتش يتوقع أن يُعيّن رئيساً لمحكمة في مدينة جامعية ؛ لكن لا يُدرى كىف حصل «هوب» على هذا المكان. غضب اىفان اىلىتش وأنحى عليه باللوم وساءت علاقاته مع رؤسائه، فأبدوا تجاهه شيئاً من البرودة، وعند الترفيع التالي استُبعد مرة أخرى.

كان ذلك في ١٨٨٠. وكانت هذه السنة أشد سنِيّه مشقة. فمن جهة، تبيّن أن مرتّبه لا يكفيه ليعيش، وأن الجميع من جهة أخرى، أخذوا ينسونه، وأن ما كان يَعدُّه ظلماً صارخاً و شنيعاً، لم يكُنْ في نظر الآخرين سوى شيء جِدٌ طبيعي. حتى إن أباه نفسه لم يرَ من واجبه أن يمدّ إليه يدّ المعونة. أحسّ أن الجميع شرَعوا يهجرونه معتبرين أن ثلاثة آلاف وخمسمئة روبل مرتّب طبيعي بل رفيع. هو وحده كان يعلم أنه عندما يحسب حساب الظلم الذي ارتُكِب بحقه، وأنّ مشاحنات امرأته المستمرة، وأن الديون التي يحملها وهو يعيش فوق وسائله المادية، هو وحده كان يعلم أن هذا الوضع بعيد عن أن يكون طبيعياً.

في هذه السنة، نال إجازته في الصيف، لكي يخفِّف من أعباء النفقة، وذهب مع امرأته ليقضي تلك الاجازة في الريف، عند والد براسكوفيا فيودوروفنا.

في الريف، أحسّ ايفان اىلىتش، بعد أن خَلَا من مشاغله، ولأوّل مرّة في حياته، لا بالضجر العميق فحسب بل و بالقلق الذي لا يُطاق. فقرّر أنه لا يستطيع أن يستمر في حياته على هذا المنوال وأن عليه حتماً أن يتّخذ تدابير حاسمة.

وبعد ليلة من السُهاد قضاها يذرع السطح، عزم على السفر إلى بطرسبرج والقيام بالمساعي الضرورية لكي يحاول الدخول في وزارة أخرى فيُعاقِب بذلك الذين لم يُحسِنوا تقديره.

في اليوم التالي سافر إلى بطرسبرج، رغم اعتراضات زوجته وحميّه.

كان هدفه الوحيد من هذا السفر أن يحصل على مركز مرتّبه خمسة آلاف روبل. لم يكن يحرص حرصاً خاصاً على هذه الوزارة أو تلك؛ كان طابع المهمّات التي عليه أن يقوم بها ونوعها قليلي الأهمية عنده. لم يكن يلزمه سوى مركز، مركز بخمسة آلاف روبل، في الإدارة، في المصرف، في الخطوط الحديدية، في مؤسسات الإمبراطورة ماريا (1)، حتى في الجمارك، على شرط أن ينال خمسة آلاف روبل وأن يترك هذه الوزارة التي لم يقدر فيها حق قدره.

وتُوِّج سفر ايفان ايليتش بنجاحٍ غير عادي وغير متوقع. أحد أصدقائه، «ايليين» دخل مقصورته في «كورسك»، مقصورة من الدرجة الأولى وأعلمه عن البرقية التي تلقّاها حاكم كورسك والتي تدور حول تغيّر سيحدث في الوازرة في مدى بضعة أيام. سوف يعين ايفان سيمونوفيتش مكان بيير ايفانوفتش.

فضلاً عن التأثير الذي ربما يكون لهذا التغيير في مصائر روسيا، فقد كان له أهمية خاصة لدى ايفان ايليتش. وصل إلى السلطة رجل جديد، هو بيير بيتروفتش، ومعه صديقه، زاكار ايفانوفتش؛ وكان هذا صديقاً ورفيقاً لايفان ايليتش.

في موسكو، تأكّد النبأ. فَلدى وصول ايفان ايليتش الى موسكو، ذهب للقاء زاكار ايفانوفتش، وحصل منه على وعد بتعيينه في مركز حسن في وزارة العدل.

بعد أسبوع، أبرق لزوجته:

«زاكار» في مكان «ميلر» وسوف أُعَيّن عند أول قرار.

بفضل هذا التغيّر حصل ايفان ايليتش فجأة في وزارته القديمة على مركز رفعه مرتبتين فوق زملائه القُدامى؛ خمسة آلاف روبل المرتّب وثلاثة آلاف وخمسمئة روبل نفقات الانتقال. كان ايفان ايليتش سعيداً كل السعادة ونسيَ الغيظ الذي كان يكنّه لأعدائه القدامى وَلِلوزارة.

عاد ايفان ايليتش إلى الريف، مرِحاً، راضياً كما لم يكن من قبل. وكانت براسكوفيا فيودوروفنا سعيدةً أيضاً، وسادت هدنة بين الزوجين. روى ايفان ايليتش كيف لقيَ الترحيب في بطرسبرج، وكيف أُهين أعداؤه، فهم يتملّقونه الآن ويحسدونه، كما روى كم كان محبوباً في بطرسبرج.

أصغت إليه براسكوفيا فيودوروفنا، وتظاهرتْ بأنها صدّقت كلّ ما قاله، واكتفت بتخطيط المخططات حول إقامتهم في المدينة حيث سيسكنون. ولاحظ ايفان

اى‌ل‌ى‌تش بفرح أن هذه المخطّطات هي أيضاً مخطّطاته، وأنهما اتفقا من جديد، وأن حياته استأنفت، بعد الأزمة، مجراها السار والصحيح كل الصحّة.

لم يُقِم اى‌فان اى‌ل‌ى‌تش طويلاً في الريف. كان عليه أن يتسلّم واجبات منصبه في العاشر من أيلول، وفضلاً عن ذلك، كان عليه أن يترك منزله ويستقر في مقر جديد، وأن يشتري كثيراً من الأشياء، وأن يُعطي أوامره، وبالاختصار، عليه أن ينظّم حياته وفقاً لِمشروعاته التي تتوافق تماماً تقريباً مع رغبات امرأته.

الآن وقد سُوِّيَ كلُّ شيءٍ بنجاح، الآن وقد تفاهم جيداً مع امرأته التي لم يكن يراها إلا قليلاً، غدت علاقاتهما أفضل مما كانت عليه منذ السنة الأولى من زواجهما. كان ايفان ايليتش يستعد لاصطحاب أسرته معه، لكنه سافر وحده بناءً على إلحاح أخت زوجته وزوجها اللذين أصبحا على حين غرّة لطيفين، ودودين نحوه.

سافر، ولم يفارقه طيب مزاجه الذي سببه نجاحه وَوِفاقه مع امرأته. عثر على شقة فاخرة، كالتي حلم بها الزوجان بالضبط: غرف استقبال واسعة وعالية بحسب الأسلوب القديم، مكتب للعمل مريح ورسمي، غرف لبراسكوفيا فيودوروفنا وابنتهما، غرفة دراسة لطالب المعهد. كان كل شيء كأنما أقيم من أجلهم. اهتم ايفان اى‌ل‌ى‌تش نفسه بترتيب المنزل؛ اختار الورق واشترى الأثاث ولا سيما الأثاث القديم اللائق المظهر، وشيئاً فشيئاً وَجَدَ كلُّ شيء مكانه المناسب، وقارب المجموع من المثال الذي وضعه لنفسه اى‌فان اى‌ل‌ى‌تش. وعندما استقر نصف استقرار تبين أن النتائج تجاوزت توقعاته، وأدرك الطابع اللائق، الأنيق من غير أن يكون مبتذلاً في الوقت نفسه، الطابع الذي سيتخذه المجموع عندما يتم كل شيء. كان إذا نام تصوّر مظهر صالة الاستقبال. وإذا مرّ بعينيه على الصالون رأى مسبقاً المدفأة والحاجز والرّف والكراسي الصغيرة متفرّقة هنا وهناك، والصواني والصحون على الجدران، والبرونزيات. كان يبتهج حين يفكّر بمفاجأة «باشا» و «ليزا» اللتين تملكان هما أيضاً حسن الذوق في هذه الأشياء. لم تكونا تنتظران مثل ذلك، بالتأكيد. لقد نجح في أن يكتشف ويشتري بسعر رخيص أشياء قديمة تُعطي الشقّة طابع النبل. وفي رسائله، كان يقلّل من جمال إقامته عن قصد عما هي عليه، وذلك لكي يفاجئهما. كان ذلك كله يشغله إلى حدّ كبير حتى إن وظيفته الجديدة التي كان يحبها مع ذلك، أخذت تهمّه أقل ممّا كان يتوقّع. وأثناء الجلسات، كان فكره يشردُ لحظات، كان يفكّر في ستائره: أتكون مثنّاةً أم مستقيمة؟ كان نفاد صبره عظيماً حتى إنه كان يغيّر هو نفسه أمكنة الأثاث ويُرخي الستائر. وذات يوم، بينما كان صاعداً السلّم ليرى المنجّد الذي لم يُفهمه، كيف كان يريد أن تُوضع

الستائر، زلّت قدمه وسقط، لكنّه لمّا كان قوياً وحاذقاً، تماسك واصطدم جانبه بغلّاقة النافذة. توجّع قليلاً، لكن هذا الألم سرعان مازال.

كان ايفان ايليتش يحسُّ طوال هذا الوقت بأنه مرحٌ ومعافى. كان يكتب: «أحس أنّ لي خمسة عشر عاماً أقل من عمري». كان يعتقد أنه سينتهي في أيلول، لكن الأشياء امتدّت حتى أواسط تشرين الأول. وبالمقابل، كان ذلك فتّاناً: ولم يكن هذا رأيه وحده، بل كان الجميع يقولون له ذلك.

في الواقع، كانت شقته شبيهة بشقق جميع الناس الذين لم يكونوا وافري الغِنى والذين يبذلون وسعهم ليتشبّهوا بالأغنياء، لكنهم لا يفلحون إلّا في أن يتشبّهوا بعضهم ببعض: الصِبْغ والابنوس والأزهار والسجّاد والبرونز، والألوان القاتمة أو اللامعة، جميع الأشياء التي يستعملها أناس من طبقة معينة ليتشبّهوا بأناسٍ من طبقة أعلى. كان هذا الشبه، لدى ايفان ايليتش، تاماً جداً حتى أن لاشيء منه جذب الانتباه؛ لكن كل شيء بدا له في منتهى الأصالة. كان يحسّ بالسعادة الكاملة عندما يذهب للقاء ذويه في المحطة، وعندما يصطحبهم إلى منزله فيفتح باب البهو المزدان بالورود الخادمُ بربطته البيضاء، وعندما يدخلون الصالونات ثم مكتب العمل وهم يطلقون صرخات الإعجاب؛ قادهم إلى جميع الأماكن، متذوّقاً ثناءهم، مشرقاً بالفرح. وفي المساء، أثناء تناول الشاي، عندما سألته براسكوفيا فيودوروفنا بين أسئلة أخرى، كيف سقط عن السلم، انفجر ضاحكاً وقلّد سقوطه وارتعاب صاحب النجد.

- إني لا أمارس الرياضة عبثاً؛ غيري كان سيُقتل، أمّا أنا فلم أُصبْ إلّا بضربةٍ خفيفة تؤلمني إذا لُمِست. لكن ذلك أخذ يزول ولم يبقَ سوى آثار اللطمة.

أخذوا يعيشون إذن في مسكنهم الجديد الذي تبيّن أنه تنقصه غرفة كما يظهر دائماً عندما يستقرّ الناس في سكناهم نهائياً. ولم يكن ينقص المرتّب الجديد سوى القليل من الأشياء، نحو خمسمئة روبل؛ لكن الأمور تسير سيرةً حسنة. ولا سيما في الأزمنة الأولى عندما لم يكن كل شيء قد انتهى بعد، وكان لا بد من الانشغال بالشراء، والتوصية والنقل. كان كِلَا الزوجين جِدٌ سعيد وإن وقعت بعض الاختلافات الطفيفة، فقد كان هناك. أشياء كثيرة يجب أن تُنجَز بحيث كانت الأمور تُسوّى دون كبير خصام. فإذا لم يكن بينهما ما ينبغي أن يُسوّى دبّ المَلَلُ وشعرا بشيءٍ ينقصهما. لكن العلاقات والعادات الجديدة ملأت حياتهما.

كان ايفان ايليتش يقضي الصباح في المحكمة ويعود للغداء؛ في الآونة الأولى كان

حسن المزاج، مع أنه بدا منشغلاً بكل ما يمس المسكن (أقل بقعة على غطاء الطاولة أو على قماش الأثاث، حبل الستارة المنزوع، كل ذلك كان يغيظه: لقد كلّفه تجهيز المنزل كثيراً من الجهد حتى إن أدنى تلف كان مؤلماً له؛ لكن حياة ايفان ايليتش كانت، على العموم تجري وفقاً للمثل الأعلى الذي خطّه لنفسه: بيسر وسرور وسلامة. كان ينهض في التاسعة ويتناول قهوته، ويقرأ صحيفته، ويرتدي بعد ذلك بزّته ويقصد المحكمة ويستأنف عمله الذي تعوّده والذي كان يفرغ إليه بسهولة. الملتمسون، طلبات الاستعلام، الرئاسة، الجلسات العامة، المؤتمرات الإدارية... كان عليه أن ينحّي عن هذه المشاغل الواقع الحي الذي يأتي باستمرار فيُشوّش المجرى النظامي لأعمال الوظيفة: كان عليه أن يحرص على ألا يكون له مع الناس من علاقات غير التي تدخل في نطاق الوظيفة. مثلاً، يجيئه شخص يطلب معلومات. لا يمكن لايفان ای‌لی‌تش، خارج وضعه الرسمي، أن تكون له أية علاقة معه، لكن إن أمكن لعلاقاتهما المتبادلة أن تعبّر عن نفسها على ورقة بعنوان، فإن ای‌فان ای‌لی‌تش، في حدود هذه العلاقات سی‌َفعل مايستطيع، كل ما يستطيع حتماً، مراعياً شكليات الصداقة، أي التهذيب. فإذا ما انتهت علاقاتهما الرسمية، انتهت بينهما جميع العلاقات الأخرى. كان ايفان ايليتش يملك إلى أعلى درجة موهبة الفصل الواضح بين شؤون الخدمة وشؤون الحياة الواقعية؛ وتوّصل جيداً بفضل ممارسة طويلة، إلى تنمية هذه الموهبة، حتى إنه كان يستبيح أحياناً، كالعازف الماهر، أن يخلط بين العلاقات الإنسانية والرسمية وكانه يتلاعب تلاعباً. كان يستبيح ذلك لأنه كان يشعر دائماً أنه قادر على تمييز حدود العلاقات الإنسانية إن لزم ذلك، وعلى استبعادها. كان ايفان ايليتش يفعل ذلك بيسر وسرور وسلامة عظيمة، بل وَبِحميّة. كان يدخّن في أوقات فراغه، ويشرب الشاي، ويتحدث قليلاً في السياسة وفي المسائل العامة، وفي اللوائح ولا سيما التعيينات. كان يعود إلى منزله متعباً جداً، لكن مع رضا العازف الماهر الذي نفّذ تنفيذاً حسناً دوره كعازف قيثار في الأوركسترا. وكانت الأم وابنتها تخرجان، من جهتهما، وتستقبلان الزوار، وكان الولد يذهب إلى المعهد، ويعمل في المنزل مع مدرسيه، ويحفظ جيداً ما يُعطى في المعهد. كان كل شيء يسير سيراً حسناً.

بعد الغداء، كان ايفان ايليتش إن لم يكن عندهم ناس، يقرأ أحياناً كتاباً كثر الكلام عليه، وفي المساء، كان يعكف على العمل، أي أنه كان يدرس الإضبارات، باحثاً عن القانون الذي يجب تطبيقه، ويقارن بين الشهادات. كان يفعل ذلك دون ضجر ولا لذّة. فإذا ضجر أمكنة اللعب بالورق، وإذا لم يلقَ شركاء في اللعب آثر أن يعمل على أن يبقى عاطلاً أو آثر أن يتحدث مع براسكوفيا فيودوروفنا. وكانت لذّته الكبرى تلك الأغدية

التي يدعو إليها بعض السيدات وبعض الرجال من عِليّة القوم: كانت هذه الاجتماعات شبيهة بجميع الاجتماعات التي من هذا النوع، كما أن صالون ايفان ايلييتش كان شبيهاً بجميع الصالونات.

بل إنه دعا مرّةً إلى سهرةٍ رَقصَ الناسُ فيها. كان ايفان ايلييتش مسروراً جداً، لكن جرى خلاف بينه وبين امرأته حول الحلوى والسكاكر. كانت لبراسكوفيا فيودوروفنا خطّتها، لكن ايفان ايلييتش أصرّ أن يشتري ذلك كله من عند بائع حلوى غالي الثمن؛ وأوصى على كمية زائدة من الحلوى فبقي منها وبلغت قائمة البائع خمسة وأربعين روبلاً. كان الخلاف شديداً وكريهاً حتى إن براسكوفيا فيودوروفنا نعتتْ زوجها بأنه غبيٌ ومغفّل، حينئذ أمسك رأسه بيديه، وذكر في فورته الطلاق. لكن السهرة نجحت. حضرتها نخبة المجتمع، وراقص ايفان ايلييتش الأميرة تروفونوفا، أخت المؤسسة الشهيرة لجمعية الإحسان «أَزلْ عنائي».

و كانت المتعة التي يستشعرها ايفان ايليتش في ممارسة واجباته الوظيفية متعةً قائمةً على حب الذات؛ كانت مخالطاتُه الإجتماعية تُرضي غروره، لكن أفراحه الحقيقية كانت تلك التي يتذوّقها في الهويست». وكان يقرٌ بأنه، مهما يحدث، ومهما تكن المكدرات، يرى فرحه الأقصى الذي يسطع كالشمعة فوق جميع الأفراح الأخرى، هو أن يجلس إلى مائدة اللعب مع لاعبين ماهرين، شركاء مستقيمين، للعبة «هويست» بأربعة لاعبين (لأن من الصعب، إذا كانت بخمسة لاعبين، الانسحاب عندما يأتي دورك وإن تظاهرت بالرضا) وأن يلعب لعبة جادة وذكية (إذا كان محظوظاً). ثم أن يتعشّى وأن يشرب كأساً من الخمر. وبعد الهويست، ولا سيما إذا كان الربح قليلاً (كان الربح الكثير كريه عليه). كان ايفان ايلييتش ينام وهو في استعداد مزاجي بالغ السعادة.

هكذا كانت تمر حياتهما؛ كانا يريان نخبة المجتمع، وَيستقبلان شخصيات هامة، وشباباً.

كان الأب والأم والبنت متفقين كلّ الاتفاق فيما بينهم حول اختيار علاقاتهم، وحتى دون أن يتشاوروا بهذا الصدد، كانوا يستبعدون أولئك الأقرباء الفقراء، وأولئك الأصدقاء الرقيقي الحال الذين يهرعون إلى صالونهم المزدان بالأواني الصينية، وهم ممتلئون باللطف. وسرعان ما كفّ هؤلاء الناس الصغار عن تراكضهم إليهم، ولم يعد لآل غولوفين من علاقة سوى علاقتهم بنخبة مختارة. كان الشباب يغازلون «ليزا» وأخذ «بيتر يشتييف» ابن «دمتري بيتريشييف» الوارث الوحيد لثروته، وقاضي التحقيق، يغازلها بمثابرة شديدة حتى إن ايفان ايلييتش تشاور هو وبراسكوفيا

فيودوروفنا: ألم يحن الوقتُ لتنظيم نزهات بالعربات أو عرضٍ للهواة؟

هكذا كانوا يعيشون. كان كل شيء يجري بانتظام ويسير سيراً حسناً.

---

(1) - مؤسسات الامبراطورة ماري: أنشات الامبراطورة ماري أم الإسكندر الأول ونيقولا الأول، مؤسسات للإحسان والتربية. وبعد موتها سنة ١٨٢٨ ظلّت هذه المؤسسات تحمل اسمها وتكوّن دائرة خاصة.

- 4 -

كان الجميع في صحةٍ حسنة. ولا يمكننا في الواقع أن نعدّ مرضاً ذلك المذاق الغريب الذي كان يحسبه أحياناً ايفان ايليتش في فمه وذلك الضيق الذي يشعر به، كما يقول، في الجهة اليسرى من صدره.

لكن كان يقع أن هذا الإحساس بالضيق يغدو أشد إجهاداً، لم يكن ألماً بعد لكنه كان ثقلاً مستمراً، وساء مزاج ايفان ايليتش. وسوء المزاج هذا الذي لم يكف عن التنامي، ما لبث أن كدّر الحياة السائغة والسهلة التي كانت تحياها أسرة «غولوفين». غدت المخاصمات بين الزوج والمرأة أكثر تكراراً، ولم يكن التوصل إلى إنقاذ المظاهر على الأقل ممكناً إلا بشقِّ النفَس. وتكرّرت المشاحنات ولم يبق بينها سوى جزيرات صغيرة لايقربها الزوجان إلا في لحظات قصيرة من الراحة. أخذت براسكوفيا فيودوروفنا تقول، ولا يخلو ذلك من الحق الآن، إن زوجها ذو طبع صعب. كانت تضخم الأشياء على عادتها وتقول: إن طبعه كان كرىهاً دائماً وأنها كان لا بدّ من طيبتها لِتتحمله طوال عشرين عاماً. والحق أنّه هو الذي أصبح الآن يشرع في المشاحنات. كان يبدأ تذمّره قبل أن يجلس إلى المائدة، وغالباً قبل أن يتناول حساءه. فتارةً من صحن مثلوم، وتارةً أخرى من طبقٍ يبدو له سيئاً، وتارةً من ابنه الذي وضع مرفقيه على المائدة، وتارة أخرى من زينة شعر ابنته. كان يتصدّى دائما لبراسكوفيا فيودوروفنا. كانت هذه تردّ عليه في البدء وتقول له أشياء غير مستحبة؛ لكنه استشاط غضباً مرة أو مرتين في بداية الغداء إلى حد أدركت معه أن ذلك نتيجة حالة مرضية أثارها الطعام، فتمالكت نفسها: لم تعد تجيب واكتفت بتعجيل الغداء. كانت تعتز اعتزازاً عظيماً بصبرها. وإذ قرّرت أن لِزوجها طبعا كرىهاً وأنه سبب شقاء حياتها، تحنّنت على مصيرها هي. وكانت كلما أشفقت على ذاتها ازدادت كرهاً لزوجها. فأخذت تتمنى موته، لكن هذا الموت كان سيحرمها من مرتبات اىفان اىلىتش، فتزداد حنقاً. كانت تعدّ نفسها شقيّة إلى حدٍ هائل لأن موت زوجها لم يكن ليخلِّصها. كانت تغتاظ وتُخفي غيظها فلا يجعله ذلك إلا أشدّ لذعاً.

بعد مشاحنة بدا ايفان اىلىتش أثناءها ظالم شديد الظلم، وأقرّ بعدها، عند

الاستيضاح الذي تلا المشاحنة، أنه أصبح في الواقع سريع التهيّج، وأن ذلك مرضي، قالت له إن عليه أن يعالج نفسه لأنه مريض، وطلبت إليه أن يذهب ويستشير طبيباً شهيراً.

وقصد الطبيب. جرى كل شيء كما كان يتوقّع وكما يجري ذلك دائماً. انتظار طوىل، ملامح رسمية، متصنّعة، يعرفها جيداً، فكذلك كان يتصرّف في المحكمة؛ كشف الصدر، أسئلة اعتيادية، تتطلب بعض الأجوبة المحدّدة سلفاً والتي لا جدوى منها، مظهر الوقار المتعالي الذي يعني: أنتم ماعليكم إلا أن تطىعونا وَسنسوّي كل شيء؛ نحن نعلم جيداً، دون أدنى شك، كيف نسوّي الأشياء، بالطريقة نفسها دائماً، مهما يكن المريض. كل شيء كان يجري تماماً كما يجري في المحكمة. فكما أنه كان يمثّل ملهاةً أمام المتهمين، كان الطبيب هنا يمثّلها أمامه.

قال الطبيب:

- هذا وذاك يدلان على أنك مصاب بهذا الشيء وذاك، لكن في الحالة لا يُثبت فيها التحليل ذلك؛ ينبغي الافتراض أنّك مصاب بهذا الشيء وذاك، وإذا افترضنا... حينئذٍ..... الخ.

لم يكن ايفان ايليتش مشغولاً إلا بمسألةٍ واحدة: هل كان في ذلك خطر أم لا؟ لكنّ الطبيب تجاهَلَ هذه المسألة التي في غير مكانها، فهي من وجهة نظره مسألة لا جدوى منها ولا مجال لبحثها: كان المقصود فقط أن يزن الاحتمالات: كِلية عائمة، نزلة مزمنة، زائدة دودية... لم تكن حياة ايفان اىلىتش موضع الخلاف، بل كان المقصود هو النقاش بين الكِلية العائمة والزائدة الدودية. لكن الطبيب حسم النقاش ببراعة لمصلحة الزائدة، مشيراً من ناحية أخرى أن تحليل البول يمكن أن يقدّم معطيات جديدة وأن القضية في هذه الحالة سيُعاد النظر فيها، كان ذلك العملية نفسها تماماً، كلمة كلمة، العملية التي نفّذها ايفان اىلىتش آلاف المرات ببراعة عظيمة على المتهمين الذين كانوا يمثلون أمامه. لم تكن خلاصة الطبيب أقل تألقاً، ورمي المتهم، من فوق نظارته، بنظرة منتصرة، فرحة تقريباً. استنتج ايفان اىلىتش من هذه الخلاصة أن الأمور سيئة. بالنسبة الى الدكتور، وبالنسبة إلى جميع الناس ربما، لم يكن لذلك من أهمية، أما بالنسبة إليه شخصياً فالأمور سيئة جداً. وهذا الاستنتاج أذهل اىفان اىلىتش بألم وأيقظ فيه شعوراً عميقاً بالشفقة على نفسه وبالكره للدكتور الذي لم يكترث لشيء بهذه الأهمية.

لكنه لم يقل شيئا؛ نهض ووضع المال على الطاولة، وتلفّظ وهو يتنهد:

- نحن المرضى، غالباً ما نطرح عليكم أسئلة ناشزة... ومع ذلك، هل هذا المرض خطير أم لا؟

رماه الدكتور بنظرة قاسية عبر نظارته وكأنه يقول: «أيها المتهم، إذا لم تلزم حدود الأسئلة التي نطرحها عليك، فسوف أضطر إلى إخراجك من صالة الجلسات.» قال الطبيب:

قلتُ لك ما رأيتُ قوله ضرورياً ومناسباً. وسوف يكمّل التحليلُ فحصي.

حيّاه الدكتور.

خرج ايفان اىلىتش ببطء، وصعد بحزن زلاجته وأمر بإيصاله المنزل. وطوال الطريق كلها لم يكف عن التفكير في كلمات الطبيب، جاهداً في ترجمة العبارات العلمية المعقّدة والغامضة، إلى لغة سهلة لكي يعثر فيها على الجواب عن سؤاله: هل حالتي خطيرة، خطيرة جدة، أو أنها ليست شيئاً حتى الآن؟ وبدا له أن كلمات الدكتور كانت تعني أن حالته سيئة جداً. بدت الشوارع حزينة لايفان اىلىتش؛ كانت العربات حزينة، والبيوت والمارة والدكاكين حزينة. وبدا الألم الذي كان يستشعره، ذلك الألم البهيم، العنيد، الذي لم يتركه لحظة، بدا له أنه يتّخذ، من جراء جُمَل الدكتور الملتبسة، دلالة جديدة، أكثر جدية. أخذ ايفان ايليتش الآن يلاحظ هذا الألم بشعور جديد، مؤلم.

روى كل شيء لامرأته عند عودته إلى المنزل. أصغت إليه هنيهة؛ لكن ابنتها دخلت، في منتصف روايته، وقبّعتها على رأسها: كانت ستخرج مع أمها. جلست وبذلت وسعها لِتُصغي إلى هذه القصة المُملّة، لكنها لم تُطقْ صبراً، لا هي ولا أمها أيضاً.

قالت هذه لزوجها:

- حسناً! أنا مسرورة جداً، وعليك الآن أن تأخذ الدواء بانتظام. أعطني الوصفة، سوف أرسل جيراسيم إلى الصيدلية.

وخرجت لترتدي ثيابها.

تكلم دون توقف مدة بقائها في الغرفة، تنفّس الصعداء عندما خرجت. قال:

- حسناً، لعلّ ذلك ما زال شيئاً غير ذي بال، في الواقع.

تناول الأدوية، ونفذّ تعليمات الدكتور التي عدّلها على كل حال بحسب نتائج تحليل

البول. لكن حدث حينئذ التباس في هذا التحليل وفي التدابير التي يجب أن تتلوها. إذ لم يكن ممكن بلوغ الدكتور نفسه؛ وبدا أنه قد نُفّذ شيءٌ آخر غير ما أمر به الدكتور، أو أنه أخطأ، أو أنه لم يقل كلّ شيء.

مهما كان الأمرُ، فقد أخذ ايفان اىلىتش ينفذ بدقة جميع التعليمات ووجد في ذلك بعض العزاء، في الآونة الأولى.

كان هم اىفان اىلىتش الرئيسي، منذ زيارته الدكتور، هو أن يتّبع بدقة توصياته المتعلقة بالصحة والأدوية وأن يراقب بإمعان ألمه وجميع وظائف عضويته. تركّزت اهتمامات اىفان اىليتش في الأمراض والصحة: كان إذا جرى الكلام بحضرته عن المرضى أو الموتى أو الذين شُفُوا من أمراضهم، ولا سيما عندما يجري الكلام على مرض شبيه بمرضه، يُصيخُ السمع وهو يجهدُ في إخفاء انفعاله، فيسأل ويربط على الفور مايقال بِمرضه هو.

لم يتناقص الألم؛ لكن ايفان ايليتش كان يُقنع نفسه بأنه يتحسّن. وتوصّل إلى الكذب على نفسه، إلى حد إنه صار لا يضطرب لشيء. لكنه ما إن يحس ما يزعج في البيت أو في الوظيفة، أو في الهويست إذا لم يحالفه الحظ حتى يتفاقم وضعه على الفور. كان يتحمل قديماً هذه المتاعب قائلاً في نفسه إنه سيسوّي الأشياء ويقاوم وينجح، ويفوز فوزاً ساحقا في اللعب، أما الآن فإن أقل مضايقة كانت تهزّه هزاً وتغرقه في الأسي. كان يقول في نفسه: «كنت في طور الإبلال من مرضي؛ وأخذت الأدوية تفعل فعلها، وها إن هذه المصيبة الملعونة أو هذه المزعجات!...» فتثور ثائرته على المتاعب وعلى الناس الذين يسبّبون له هذه المزعجات ويقتلونه؛ ومع أنه أحس أن هذا الغضب كان يقتله فإنه لم يستطع مقاومته. كان جديراً به، كما يبدو، أن يرى بوضوح أن هذا السخط على الظروف وعلى الناس يعزّز مرضه وأن عليه، بالتالي، ألا يعير المتاعب التي تطرأ أي انتباه؛ لكنه كان يحاكم بالضبط ويراقب بانتباه كل ما يمكن أن يشوّش هذا الهدوء، وكانت أقل معاكسة تثير حنقه. وما فاقم من حالته أيضاً قراءة كتب الطب وزيارة الأطباء. كان مرضه يزداد سوءاً بانتظام شديد حتى إنه توصل إلى الكذب على نفسه عندما كان يقارن بين يوم وآخر: إذ يبدو الفرق حينئذ طفيفا. لكنّه عندما كان يستشير الأطباء كان يبدو له أن حالته تزداد سوءاً، بل وبسرعة كبيرة. وبالرغم من ذلك، لم يكف عن استشارة الأطباء.

في أثناء الشهر نفسه ، قصد طبيباً شهيراً آخر، قال له الشيء نفسه الذي قاله الطبيب الشهير الأول، لكنه طرح الأسئلة على نحو مختلف. وهذه الاستشارة عزّزت تعزيزاً

شكوك ايفان ايلىتش ومخاوفه. حدد صديق أحد أصدقائه، وهو طبيب ممتاز، مرضه على نحو مختلف، لكنه، وإن وعده بالشفاء، إلا أنه شوّشه أكثر بأسئلته وافتراضاته وزاد من شكوكه وحدد الطبيب التجانسي مرضه أيضاً بطريقة أخرى وأعطاه دواء تناوله مدة أسبوع سراً عن الجميع. لكن بعد مضي أسبوع لم يشعر بأي تحسن، وفقد الثقة في العلاج القديم وفي هذه الطريقة الجديدة، فأحس بأن عزمه قد هُدّ أكثر من ذي قبل، وذات يوم حدثته سيدة عن الشفاء الذي تحدثه الأيقونات. وفاجأ ايفان ايلىتش نفسه وهو يصغي إليها بانتباه ويتحقق من حقيقة الحدث. رُوِّع من ذلك وتساءل... «هل تدنّى ذكائي إلى هذه الدرجة؟ كل ذلك حماقات! ينبغي ألا نستسلم للخوف، لكن بما أنني اخترت طبيباً فينبغي أن أقتصرَ على علاجه. وهذا ما سأصنعه منذ الآن. انتهى الأمر الآن. لن أفكّر في ذلك بعد الآن وَسأتبع بدقة علاجاً وحيداً. وَسَأرى فيما بعد. كفى ترددّاً!».

كان سهلاً أن يقول ذلك لكن كان مستحي أن يحقّقه. لم يتخلّ عنه الوجع في جنبه. وبدا الوجع كأنه قد غدا أشد حدة وإرهاقاً؛ وغدا المذاق الذي يحسه في فمه أشدّ غرابة، وخُيّل إليه أن فمه تفوح منه رائحة انتن وانحطت قواه وتناقصت شهوته إلى الطعام. كان من غير الممكن أن يخطىء في ذلك: كان يجري فيه شيء رهيب، شيء جديد أهم من كل ما وقع حتى الآن لايفان ايليتش. وكان وحده يعلم ذلك؛ أما الذين كانوا يحيطون به فلم يكونوا يفهمون ذلك أو لم يكونوا يريدون أن يفهموه، وكانوا يتصورون أن كل شيء يسير في العالم كما كان يسير في الماضي. وهذا ما كان يؤلم ايفان ايلىتش أكثر من أي شيء آخر.

كانت أسرته وزوجته وابنته جِدّ منهمكين في موسم الحياة المدنية فلم يفهموا شيئاً، كان يرى ذلك، وكانوا يغضبون حين يرونه شديد التطلّب والحزن، وكأنّ ذلك من غلطه. كان يستشفّ أنه يضايقهم وإن كانوا يجهدون في إخفاء ذلك، وأن امرأته اتخذت إزاء مرضه قاعدة للسلوك تراعيها مهما قال أو فعل ويتجلى موقفها كالآتي:

كانت تقول لأصدقائها: «تعلمون أن ايفان ايلىتش عاجز عن المتابعة الدقيقة للعلاج الموصوف، كما يفعل سائر الناس، فهو يتناول اليوم الدواء ويأكل ما أمر به الطبيب وينام؛ أما في اليوم التالي فهو ينسى أن يتناول دواءه، إذا لم أسهر على ذلك، ويأكل سمك الحنش (وهو ممنوع عليه) ويظل يلعب بالورق حتى الواحدة صباحا.».

فيردّ ايفان ايلىتش:

- متى وقع لي ذلك؟ مرة واحدة، عند «بيير إيفانوفتش».

- مالك! ومع «شيبيك»!

- لم أكن أستطيع النوم لشدّة الألم.

- هناك دائماً، بالطبع، سبب ما. ولكنّك لن تشفى أبداً هكذا وأنت تعذبنا.

كان موقف براسكوفيا فيودوروفنا إزاء مرض زوجها يتلخص في أن تعلن للجميع، ولايفان ايلّيتش نفسه، أن مسؤولية هذا المرض إنما تقع عليه، وأن هذا المرض ماهو إلا واحد من تلك المكدّرات العديدة التي يسببها لامرأته. وكان ايفان ايليتش يرى أنها تتصرف هكذا دون أن تريد، لكنه لم يكن يشعر من جراء ذلك بأنه أحسن.

في المحكمة، كان ايفان ايليتش يلاحظ، أو خُيّل إليه أنه يلاحظ موقفاً لا يقل غرابة إزاءه: فتارة يبدو له أن الناس يمعنون النظر إليه وكأنه رجل سيترك مركزه عما قريب؛ وتارة أخرى يأخذ أصدقاؤه في السخرية من مخاوفه وكأنّ ذلك الشيء الفظيع والمروّع، ذلك الشيء الغريب الذي استقر فيه، الذي ينخره أبداً والذي يجره جرة إلى حيث لا يدري، كأنّ ذلك الشيء لم يكن سوى موضوعٌ مسلٍّ للمزح. وكان «شوارتز» على وجه الخصوص هو الذي يثير ثائرته، «شوارتز». الذي كان يذكره، بهيئته المرحة، وحيويته، ومظهره اللائق، ما كانه هو نفسه قبل عشر سنوات.

يأتي الأصدقاء ليلعبوا جولة بالورق، فيجلسون على مائدة اللعب، ويوزع الورق؛ يجمع ايفان ايلّيتش أوراق الديناري: معه سبع. قال الشريكُ:

- بلا أوراق رابحة. ويعلن عن ورقتين ديناري.

ماذا يلزمه أيضاً؟ ينبغي أن يشعر أنه مرح، مفعم بالطاقة: إنه فوز ساحق. لكن ايفان ايليتش يحس فجأة بذلك الألم العضال، ذلك المذاق الشنيع في فمه. ويبدو له أن من الغباء أن يبتهج بفوزه في الوضع الذي هو فيه.

وينظر إلى ميشيل ميخايلوفتش، شريكه، الذي يضرب المائدة بيد صلبة، ويمتنع بأدب وتسامح عن لمّ المحصول، لكنه يدفعه نحو ايفان ايلّيتش ليتيح له لذة تناوله دون أن يتعب، بل دون أن يكلف نفسه مد يده. ليفكر ايفان ايليتش: «هل يتصور أنني بلغت من الضعف حداً لا أقدر معه على مدّ يدي». وينسى أن يعدّ الأوراق الرابحة، ويقاطع شريكه ويفوته الفوز بضربات ثلاث. الأسوأ أن نرى كم تألم ميشيل ميخايلوفتش من ذلك بينما ظل هو غير مبالٍ. والرهيب أن يفكر في سبب هذه

اللامبالاة.

يلاحظ الجميع أنه يتألم فيقولون له:

- إن كنت متعباً فنحن نستطيع أن نوقف اللعب. استرحْ.

يستريح؟ لا، إنه ليس متعباً البتة. وسوف تُنهى اللعبة. الجميع مقطّبون، صامتون. ويدرك ايفان ايلّيتش أنه هو الذي يشيع ذلك فيهم، لكنه لا يستطيع أن يبدّد هذا الجو الكئيب. فيتعشّون ويتركونه. ويبقى ايفان ايلّيتش وحده، مع هذا الشعور الواضح وهو أن حياته قد ذبلت وأنه يسمِّم حياة الآخرين وأن السمّ ينفذ إليه على نحو يزداد عمقاً.

عليه أن يمضي الى السرير بهذا الشعور وبذلك الألم الجسدي، وبرعبه، وأن يظل، في الغالب، دون أن ينام، جزءاً كبيراً من الليل. وعليه، في صباح اليوم التالي، أن ينهض من جديد، وأن يرتدي ثيابه، وأن يقصد المحكمة ويتكلّم ويكتب، أو أن يبقى في بيته ليراقب جريان الساعات التي كل ساعة منها عذاب. كان مضطراً أن يعيش هكذا على حافة الهاوية، وحيداً تماماً، دون أي كائن يفهمه ويرثي له.

- 5 -

دام ذلك شهراً، شهرين. وقبل رأس السنة، زارهم أخو براسكوفيا فيودوروفنا الذي نزل عندهم لبضعة أيام. كان ايفان ايليتش في المحكمة وامرأته في السوق تتبضّع. وعندما دخل مكتبه وجد أخا زوجته، وهو رجل متين البنية، دموي المزاج، يفك حقائبه. ولدى سماعه خطوات ايفان ايليتش، رفع رأسه ونظر إليه لحظة دون أن يفوه بكلمة. كشفت هذه النظرةُ الوجيزة كل شيء لايفان ايليتش. فتح أخو زوجته فمه، لكنه حبس التعجب الذي كان سَينبعث من شفتيه. هذه الحركة أكدت النظرةَ.

- مالك! هل تغيرتُ؟

- نعم... قليلاً.

وبالرغم من كل ما فعله بعد ذلك ايفان ايليتش ليسوق الحديث إلى هدئته، فإن أخا زوجته كان يتملّص من أسئلته. عادت براسكوفيا فيودوروفنا فلحق بها أخوها. أغلق ايفان ايليتش الباب بالمفتاح وأخذ يتفرّس في نفسه، في المرآة، يتفرس في وجهه كاملاً أولاً، ثم في صفحة وجهه. وتناول إحدى صوره التي تصورها مع زوجته وقارنها بوجهه في المرآة. كان الفرق عظيماً. ثم عرّى ذراعيه حتى المرفقين، وفحصهما، وردّ كمّيه، وجلس على الديوان، وغدا أكثر تجهّماً من الليل.

قال أخيراً:

- لاينبغي ذلك، لا ينبغي ذلك!

نهض فجأة، واقترب من الطاولة. وفتح ملفاً وأخذ يقرأ، لكنه لم يستطع أن يستمر في قراءته. فتح الباب ودخل غرفة الاستقبال. كان باب الصالون مغلقاً؛ اقترب منه على رؤوس أصابعه وأصغى.

كانت براسكوفيا فيودوروفنا تقول:

- كلا، أنت تبالغ.

- أنا، أنا أبالغ ؟ ألا ترين أنه مدّت؟ انظري إلى عينيه؛ إنهما منطفئتان. لكن ماذا

أصابه؟

- لا أحد يعرف. قال نيكولايف (وكان هذا طبيب آخر أيضاً) شيئاً لم أفهمه. وقال ليتسيتيتزكي (وكان طبيباً مشهوراً) العكس...

عاد ايفان ايليتش إلى غرفته، واستلقى وأخذ يفكر: «الكلية، الكلية العائمة». تذكر كل ماشرحه له الأطباء: كيف انفصلت وكيف أخذت تعوم. وحاول بجهد خياله أن يمسك بها، أن يبقيها في موضعها، أن يثبّتها: لا يلزم سوى القليل من أجل ذلك، كما بدا له. قال في نفسه: سوف أذهب لأرى بيير بيتروفتش (كان زميلاً صديقُه طبيب). قرع الجرس وأمر بإعداد العربة وتهيّأ للخروج.

سألته امرأته وقد عبر وجهها تعبيراً حزيناً هادئاً على نحو فريد غير مألوف:

- أين تذهب، يا جان؟

غاظه هذا الطبيبُ الذي لم يتعوّده.

- سأذهب إلى منزل بيير بيتروفتش.

قصد هذا الزميل الذي صديقُه طبيب، وذهبا معاً إلى ذلك الطبيب. وجداه في منزله وتحدثا طويلاً.

وحين فحص بالتفصيل من وجهة النظر التشريحية والفيزيولوجية ماكان يجري فيه بحسب رأي الطبيب، فهم.

هناك شيء صغير، شيء صغير جداً في زائدته. لكن يمكن تسوية ذلك. ينبغي أن تُدعّم طاقةُ عضوٍ، ويُقصّ نشاطُ عضوٍ آخر، وحينئذ تُحَلّ المشكلة ويعود كل شيء إلى نصابه. تأخر قليلاً عن الغداء. أكل، وتحدث بمرح، لكنه لبث طويلاً ولم يستطع أن يزمع على البدء بالعمل. وأخيراً مضى إلى مكتبه وشرع على الفور في العمل. أخذ يقرأ الملفّ ويدرسه، لكن الشعور بأن له قضية هامة تمسه عن كثب، سيعكف عليها بعد ذلك، هذا الشعور لم يفارقه. وعندما انتهى من عمله، تذكر أن هذه القضية الشخصية هي حالة زائدته. لكنه لم يجرِ وراء هذه الفكرة وذهب إلى الصالون لتناول الشاي كان ثمة مدعوون: كانوا يتحدثون، ويعزفون على البيانو، ويغنّون؛ وكان قاضي التحقيق، الخطيب المنتظر، هنا أيضاً. قضى ايفان ايليتش، كما لاحظت امرأته، هذه الأمسية، بمرح أكثر من عادته ؛ لكنه لم ينسَ لحظة واحدة أن عليه التفكير جدياً بزائدته. وفي الحادية عشرة استأذن المدعوين وانسحب إلى غرفته. كان ينام وحده منذ مرضه، في

غرفة صغيرة قرب مكتبه. خلع ثيابه وتناول روايةً لزولا؛ لكنه لم يقرأها. أخذ يفكر. كان شفاء الزائدة الذي شدّ ما أمّله يتمّ في خياله، بالامتصاص والتمثّل، فيعود عمل أعضائه إلى سابق عهده. قال في نفسه: «نعم، هذه هي الحال بعينها، لكن يجب أن نمدّ يد العون إلى الطبيعة». تذكّر الدواء الذي ينبغي أن يأخذه، فنهض وأخذه واستلقى على ظهره، وهو يبذل جهده في مراقبة آثاره السعيدة ومقاومته للداء. «يكفي أن أتناوله بانتظام وأن أتحاشى كل تأثير مؤذٍ؛ أحس أني تحسنت قليلاً، بل كثيراً». وجسّ جانبه، فلم يشعر بأي ألم تحت يده. «نعم، إني لاأحس بشيء؛ تحسنت الأمور كثيراً، في الحقيقة.» أطفأ الشمعة، وانقلب على جانبه. «نعم، إن ذلك يُمتصّ، وكل شيء ينتظم».

لكنه عاد فأحسّ فجأة بذلك الألم المعهود، القديم، المألوف، الخفي، النافذ، العنيد، المقيم، الجسيم. فأصابه غثيان ودار رأسه. قال: «ياالهي! يا الهي! هوذا الألم من جديد، ولن يكف أبداً!» وعلى حين غرّة، تمثّل له الأمر بمظهر مختلف تماماً. فكّر: «الكلية، الزائدة، كلا، الأمر لا يتعلق بها، بل بالحياة... وبالموت. نعم كنت أحيا، وحياتي تمضي؛ إنها تمضي، ولا يمكنني أن أستبقيها. نعم، لماذا أكذب على نفسي! أليس واضحاً للناس جميعاً ولي أيضاً أنني أموت. وأن المسألة مسألة أسابيع، أيام... وربما في هذه اللحظة بالذات؟ كان النور قبل ذلك، والآن جاءت الظلمات. كنت هنا؛ والآن إلى أين أنا ذاهب؟ إلى أين؟ » تملّكه البرد، وتوقّفَ نفسه. ولم يعد يسمع سوى دقات قلبه.

أنا لن أكون، فما الذي سيكون حينئذْ؟ لن يكون شيء. لكن أين سأكون حين تنقضي كينونتي؟ أهو الموت حقاً؟ لا، لا أريده. استوى جالساً وأراد أن يشعل شمعته، وتلمّسها بيدٍ مرتجفة، فقلب الشمعدان وارتمى على وسائده. «لماذا؟ وما أهمية ذلك!» كذلك كان يفكّر وعيناه محدّقتان في: العتمة. الموت. نعم، هو الموت. وجميعهم لا يعلمون ذلك، لا يريدون أن يعلموه. إنهم يلعبون (كان يسمع من خلال الباب دوي أصواتهم وأغانيهم). سيّان عندهم، لكنّهم سيموتون أيضاً يا للأغبياء! أنا ذاهب قبلهم، وسيلحقون بي. سيموتون جميعاً أيضاً. لكنهم يبتهجون الآن، فيا لهم من حيوانات بلهاء!» «خنقه الغيظ. كان ثقلٌ هائلٌ يسحقه. وليس ممكناً أن يُقدّر على الجميع معرفةُ هذا الرعب الفظيع!» فنهض.

هناك شيء لا يسير سيراً حسناً. يجب أن أهدأ وأن أتذكر جيداً كيف وقع ذلك. وأخذ يفكر.

«نعم، بدءُ المرض. صدمتُ علّاقة النافذة. لكن لم يتغيّر شيء: ظللتُ كما كنت. ثم

آلمني ذلك قليلاً، وبعد ذلك اشتدّ الألم. ثم جاءت الآلام، والمزاج السيء، والقلق، ثم الآلام أيضاً. وقتربتُ شيئاً فشيئاً من الهاوية. تضاءلت قواي. وتزايد قربي من تلك الهاوية. لم يبق في عيني من ضوء إنه الموت وأنا أفكّر في الزائدة. أنا أفكّر في إصلاحها. وهذا هو الموت. أهو الموت حقا؟».

غمره الخوف مرة أخرى. أخذ يلهث. انحنى وفتّش عن علبة الكبريت، وصدم بمرفقه، طاولة الليل. كانت تضايقه وأوجعته الصدمة. وفي حركة غضبى دفعها وقلبها. وارتمى على ظهره وهو يائس، يلهث، منتظراً الموت.

انسحب الزوار في هذه الآونة؛ كانت براسكوفيا فيودوروفنا تشيّعهم. سمعت صوت الوقعة ودخلت.

- ما بكَ؟

- لاشيء. قلبتُ بالمصادفة...

خرجتْ وعادت بشمعة. كان مستلقياً على ظهره وهو ينفخ نفخاً صاخباً، سريعاً، مثل رجل يركض فرسخاً. حدّد النظر إليها.

- مابك، جان؟

- لا... لاشيء. قلبتُ...

وفكّر:

«ماجدوى الكلام ! فلن تفهم.»

والحقيقة أنها لم تفهم. رفعت الشمعة، وأشعلتها وانصرفت على عجل: كان عليها أن ترافق صديقة لها، وعندما عادت وجدته في الوضع نفسه، وعيناه في السقف.

- أتحس أن حالتك أسوأ؟

- نعم.

هزت رأسها وجلست للحظة.

- أتعلم، جان؟ ألا يجب علينا أن نستدعي ليشيتسكي؟

كان ذلك يعني استدعاء الطبيب الشهير دون النظر إلى النفقة.

ابتسم ابتسامة مريرة وقال:

- لا

بقيت جالسةً لحظة، ثمّ نهضتْ وقبّلته في جبينه.

في هذه اللحظة، كان يكرهها بكل قوى نفسه وتحامل على نفسه لكي لا يصدّها عنه.

- ليلة سعيدة ! ربما أفلحت في أن تنام.

- نعم.

- 6 -

رأى ای‌فان ای‌ل‌ی‌تش أنه كان يموت فكان يائساً. كان يعلم في أعماق نفسه أنه كان يموت: لكنه لم يتوصّل إلى أن يألف هذه الفكرة، بل إنه لم يكن يفهمها. كان عاجزاً عن فهمها.

إن القياس الذي تعلّمه في كتاب المنطق الذي ألفه «كی‌وزی‌وتر» (١): كای‌وس انسان - الناس فانون - وإذن كای‌وس فانٍ. هذه المحاكمة بدت له صحيحة إن تعلّقت بكايوس لا بشخصه. كان كای‌وس انسان على العموم، ولابد من أن يموت. لكنه ليس كای‌وس، وليس إنساناً، على العموم؛ إنه مستقل، مستقل تماماً عن الكائنات الأخرى: كان «فانی‌ا» مع أمه وأبيه، مع «می‌تی‌ا» و «فولوديا»، مع خادمته، ومع الحوذي، ثم مع «كاتن‌كا»، مع الأفراح كلها، والمشقّات كلها، وحماسات الطفولة والصبا والشباب كلها. أكان كايوس يعرف رائحة تلك الكرة الجلدية المبرقشة التي أحبّها فانيا حبًا جمًّا؟ أكان كايوس يقبّل يد أمه مثل فانيا؟ أوَ من أجل كای‌وس كان حفيف تنورة أم فانيا الحريرية؟ فانيا؟ وهل كای‌وس هو الذي احتجّ في المدرسة بصدد المعجّنات؟ وهل أحبّ مثل فانيا؟ وهل يمكنه أن يرأس جلسةً مثله؟

كای‌وس ، في الواقع، فانٍ، ومن العدل أن يموت. أما أنا، فانيا، ای‌فان ای‌ل‌ی‌تش، مع جميع أفكاري، وجميع مشاعري فشيء آخر تماماً. ومن المستحيل أن يكون لا بد من موتي. ذلك جِدٌ فظيع. هكذا كان يحس.

«إن كان عليّ أن أموت مثل كای‌وس، فسأعلم ذلك جيداً، وسيقوله إليّ صوتي الداخلي. بيد أنّه لم يقل لي قط شيئاً من هذا القبيل. فأنا وجميع أصدقائي نفهم جيداً أننا مختلفون جداً عن كای‌وس. وها أنا ذا الآن.... هذا مستحيل، والأمر مع ذلك هكذا. كيف؟ كيف نفهم ذلك؟»..

لم يكن بوسعه أن يفهم ذلك وسعى جهده إلى طرد هذه الفكرة عنه، باعتبارها فكرة خاطئة، غير طبيعية، مَرَضية، وأن يحلّ محلها أفكاراً أخرى، طبيعية وسليمة. لكن هذه الفكرة، أو بالأحرى هذا الواقع كان لا يلبث أن يعود لينتصب أمامه.

ولكي يُنحّيه كان يستنجد بأفكار أخرى على أمل أن يجد فيها سند له. كان يحاول أن يلجأ إلى تلك الحالة الفكرية التي كانت تُخفي فيما مضى عن عينيه فكرة الموت. لكن، يا للغرابة! كل ما كان يخفي ويدمّر قديماً الشعور بالموت لم يعد له الآن ذلك السلطان. في الآونة الأخيرة، كان ايفان ايلّيتش معنيّاً على الخصوص بمحاولة استعادة تلك الحالة الفكرية التي كانت تستر عنه الموت. كان يقول تارةً: «سأنصرف إلى عملي. كانت هذه حياتي في الماضي. فيمضي إلى المحكمة طارداً عنه بعيداً الشكوك والتردّدات. ويحادث زملاءه، ويجلس وهو يجيل في الجمهور نظرةً متأمّلةً شاردة من جراء عادةٍ قديمة، مستنداً بِيديه الهزيلتين على ذراع مقعد من السنديان. ثمّ ينحني، كعادته، نحو معاونه، ويتبادل وإياه بعض الخواطر بصوتٍ خفيض، ويتناول الملف، ثم يرفع عينيه بغتة ويستوي في مقعده. ويتلفّظ ببعض الكلمات وتبدأ الجلسة. لكن الألم في جنبه يبدأ فجأة عمله غير مُبالٍ بالدعوى الجارية، الألم الخفي، العنيد ويحاول ايفان ايلّيتش جهده أن يصرف عنه فكره، لكنه يستمرّ في عمله، فيجيء وينتصب أمامه لينظر إليه. ويحس ايفان ايلّيتش أنه مشلول، وتنطفي عيناه ويتساءل من جديد: «أليس من شيء حقيقي غيره»؟.. ويرى زملاؤه ومرؤوسوه بدهشة وحزن أنه هو، القاضي اللامع المحنّك يتشوّش ويرتكب أخطاء، فيستوي في مقعده من جديد ويحاول أن يسيطر على نفسه مديراً الجلسة كما اتفق له إلى نهايتها، ويعود إلى بيته وبه شعور مؤلم بأن وظيفته كقاضٍ لا يمكنها أن تُخفي عنه ما ودّ لو لم يره، وأن خدمته لايمكنها أن تخلّصه من حضوره «هو»، والأسوأ أنه «هو» كان يصرفه عن عمله لا ليصنع شيئاً ما لكن لينظر إليه فقط، ليشخص إليه؛ ويتألم ألماً لا تعبير له، دون أن يفعل شيئاً على الإطلاق.

كان ايفان ايلّيتش، في مجهوده للخروج من هذه الحالة، يبحث عن تعزيات أخرى، عن شاشات أخرى؛ وهذه الشاشات تظهر عندما يدعوها، وتبدو للحظة قصيرة كأنها تحميه، لكنها لا تلبث أن تغدو شفّافة، دون أن تختفي، وكأنّ الألم يمرّ خلالها وكأنّ لا شيء يمكن أن يخفيه.

كان يقع له، في هذه الآونة الأخيرة، أن يدخل الصالون الذي أثّثه، هذا الصالون الذي سقط فيه، والذي من أجله - صار يفكر في ذلك الآن بسخرية مريرة - من أجل تجهيزه ضحّى بحياته (ذلك أنه كان يعلم أن مرضه جاء من الضربة التي أصابته)، دخل ولاحظ شقًّا في خشب الطاولة الملبّك. بحث عن السبب واكتشف أن زخارف الألبوم البرونزية بارزة. فتناوله وكان عزيزاً عليه، وقد ركّبه بكثير من الحب، فاغتاظ من

فوضى ابنته وصديقاتها: كان ممزقاً والصور مقلوبة. فأعاد الصور بعناية إلى سابق نظامها وقوّم الزوايا النحاسية.

ثم خطر له أن ينقل هذه «التجهيزات» كلها مع ألبوماتها إلى ركنٍ آخر، قرب الأزهار. نادى الخادم، وجاءت امرأته وابنته لمساعدته؛ اختلفتا في الرأي وأبدتا اعتراضهما؛ ناقشهما وغضب. لكن كل شيء كان يسير سيراً حسناً، لأنه لم يكن يفكر (فيه)، ولم يكن يراه.

لكن بينما كان ينقل الطاولة قالت له امرأته:

- انتظر، سىفعل الخدمُ ذلك. وستؤذي نفسك من جديد.

وبغتة انبعث «هو» عبر الشاشة. رآه. انبعث أمامه، لكنه يرجو أن يختفي «هو» عما قريب. ويصغي إلى نفسه: كان الألم مقيماً يتأكّله؛ حينئذ لم يعد بوسعه أن ينساه، ويشاهده بوضوح وهو ينظر إليه من فوق الأزهار. لِمَ كلٌ ذلك؟

«هل فقدتُ الحياةَ حقاً، قرب هذه الستارة. وكأنّني مقبلٌ على هجوم؟ أممكنٌ ذلك؟ ما أفظع ذلك وما أغباه ذلك غير ممكن، لكنه كائن. ».

عاد إلى مكتبه، اضطجع وظل وحيداً «معه». وجهاً لوجه «معه». ولاعمل له «معه» إلا النظر «إليه»، بينما يتجمّد القلب.

---

(1) - استاذ المنطق في برلين 1766 - 1918.

كيف حدث ذلك أثناء الشهر الثالث من مرض ايفان ايلىتش، لا سبيل إلى معرفة ما حدث، لأنه تم شيئاً فشيئاً، لكنه طرأ، دون أن يلحظه أحد، وأن زوجته وابنته وابنه والخدم والأصدقاء والأطباء، وعلى وجه الخصوص ايفان ايلىتش نفسه، قد أدركوا أن أهمية وضعه كلها بالنسبة إلى الآخرين تنحصر في معرفة متى يخلي أخيراً مكانه، ومتى يُخَلّص الأحياء من الضيق الذي يسبّبه حضوره، ويتخلّص هو نفسه من أوجاعه.

كان نومه يتناقص. أعطوه الأفيون وحقنوه بالمورفين. لكن ذلك لم يخفف ألمه. إن القلق الخفي الذي استشعره في حالة النعاس، في البدء، حمل إليه بجدّته شيئاً من السرية، لكنّه أصبح فيما بعد أشقّ من الألم.

هُيّئت لهُ وجباتٌ خاصة بحسب تعليمات الأطباء، لكن هذا الغذاء أخذ يبدو له تفهً ومقززاً أكثر فأكثر.

ومن أجل خروجه لُجئء إلى طريقة خاصة وكان ذلك في كل مرة عذاباً له بسبب عدم الملاءمة والوسخ والرائحة وأيضاً لأنه كان لابد له ممّن يساعده.

لكنه استطاع بفضل هذا الأمر الشاق بالذات أن يجد شيئاً من العزاء.

كان «جيراسيمه هو الذي ينظّف إناء ايفان ايلىتش. وكان فلاحاً فتيًا، نظيفاً، سليم الجسم، وقد سمن قليلاً في المدينة. كان مرحاً أبداً، مستويّ المزاج. في البدء تضايق ايفان ايليتش من مظهر هذا الرجل النظيف، اللابس على الطريقة الروسية، الذي يقوم بمهمة مثيرة للاشمئزاز.

وذات يوم، وبينما هو يقوم عن كرسيه ولا يجد القوة ليرفع بنطاله سقط على المقعد فَأخذ ينظر برعب إلى ذراعيه العاريتين الهزيلتين اللتين ارتسمت عضلاتهما بوضوح. في هذه اللحظة، دخل جيراسيم بمشيته الرشيقة والقوية، ناشراً حوله رائحة جزمته الضخمة المدهونة والهواء البارد. كان عليه قميص نظيف من القطن ووَوزرة من الكتان الشتوي؛ كان كُمّاه المشمّرتان يكشفان عن ذراعين فتيتين و قويتين. اقترب من الكرسي المثقوب دون أن ينظر إلى ايفان ايلىتش، كابحاً، على نحو ملحوظ، وكلي

لا يجرح المريض، فرح الحياة الذي أضاء نظرته.

لفظ اىفان اىلىتش بضعف:

- جيراسىم!

ارتعد جيراسيم وقد خشي أن يكون ارتكب خطيئة، وأدار بحركة سريعة، نحو المريض، وجهه الفتيّ، الطيّب والبسيط، الذي لم تكد لحيته تطلع.

- فيم يرغب سيدي؟

- هذا كريه عليك، كما أظن. اعذرني. لم أستطع...

- ماذا تقول، ياسيدي؟ (لمعت عينا جيراسيم وكشف بابتسامته عن أسنانه البيضاء الفتيّة) لم لا أتحمل هذا الجهد؟ أنت مريض.

وأتمّ بيديه القويتين والحاذقتين عمله المعهود وخرج وهو يمشي برشاقة. وبعد خمس دقائق عاد بالخطوة نفسها.

ظل اىفان ايليتش في مقعده. وقال عندما أعاد جيراسيم الإناء الذي غُسل بنظافة:

- أرجوك، ساعدني. تعال (اقترب جيراسيم). أَنْهِضني. يصعب عليّ الوقوف وحدي وقد صرفتُ ديمتري.

دنا جيراسيم منه، وأخذه بين ذراعيه القويتين، وأنهضه بمهارة وهدوء، وسنده بينما كان يرفع بنطاله باليد الأخرى؛ وبعد ذلك أراد إجلاسه. لكن ايفان اىلىتش طلب منه أن يوصله إلى الأريكة. قاده جىراسىم دون جهد، حتى دون أن يلمسه، بل حمله إلى الأريكة حيث أجلسه.

- شكراً! ما أمهرك وأنت تفعل هذا! أنت تفعل كل شيء... جيداً.

ابتسم جىراسيم مرة أخرى وأراد أن ينصرف. لكن اىفان اىلىتش كان يحس بالطمأنينة معه حتى إنه لم يشأ أن يتركه.

- أتعلمّ قرّبْ مني هذه الكرسي، أرجوك. لا، هذه، تحت رجليّ. أحسّ براحةٍ أكبر عندما تُرفَع رجلاي.

حمل جيراسيم الكرسيّ، وحطّها بحركة دقيقة، دون أن يصدمها، ووضع فوقها قدمي

ايفان ايلييتش. بدا لايفان ايلييتش أنه يحس بشيء من التخفّف عندما رفع جيراسيم قدميه عالياً.

قال ايفان ايلييتش:

- الأمر أفضل عندما ترتفع قدماي. دسّ تحتهما هذه الوسادة.

أطاعهُ جيراسيم. رفع من جديد قدميه ووضعهما على الوسادة. ومرة أخرى خُيِّل إلى ايفان ايلييتش أنه يشعر بشيء من الانفراج عندما كان جيراسيم يمسك قدميه؛ وعندما كان يخفضهما كانت أمورهُ تسوء.

قال له:

- جيراسيم! هل أنت مشغول؟

أجاب جيراسيم الذي تعلّم كيف يخاطب أسياده:

- لا، سيّدي.

- أما يزالُ لديك عملٌ؟

- لاشيء خاص. لقد أنهيتُ كلّ شيء ولم يبقَ عليّ إلا أن أقطعَ الحطب للغد.

- إذن، أبقِ قدميّ أكثر ارتفاعاً... أَتستطيع؟

- لم لا؟

رفع جيراسيم قدميه، وبدا لايفان ايلييتش أنه لم يعد يحسّ بأي ألم، في هذا الوضع.

- والحطبُ للغد.

- لاتقلق، إذا تكرّمتَ. فلدينا الوقت الكافي.

طلب ايفان ايلييتش من جيراسيم أن يجلس ويمسك بقدميه، وتحدث معه. شيءٌ غريبٌ جدًا ! خُيِّل إليه أنه يتحسّنُ ما دامَ جيراسيم يسند قدميه.

بدءاً من هذا اليوم، كان ايفان ايليتش يدعو جيراسيم لكي يضع قدميه على كتفيه. كان يحب أن يتحدث معه. وكان جيراسيم يصنع ذلك راضياً، بمهارة، وببساطة، وبطيب يرقّ له قلب ايفان ايلييتش. كانت القوة وامتلاء الحياة لدى الآخرين تغيظان

ايفان ايلييتش. لكن نشاط جيراسيم وطاقته لم يكونا ليُسخطاه. على العكس كانا يُهدِّئانه.

كان الهمُّ الرئيسي الذي يُعذّب ايفان ايلييتش هو الكذب، الكذب الذي ارتضاه الجميع دون أن يعرف السبب، وهو أنه مريض لا مشرف علىى الموت، وأنّ ليس عليه إلا أن يظلّ هادئاً يُعنى بنفسه لكي يُسوّى كلّ شيء. بينما كان يعلم جيداً أنه مهما يفعلوا فلن يجني غير آلام أشد فظاعة، وغير الموت. كان هذا الكذب يعذّبه؛ كان يتألّم من أنهم لم يشاؤوا أن يقبلوا بما يراه الجميع جيداً كما يراهُ هو نفسه، من أنهم يكذبون حين يجبرونه هو نفسه على مشاركتهم هذه الخدعة. هذا الكذب الذي كان يُرتَكب تجاهه عشيّة موته، هذا الكذب الذي يُسقطُ ذلك الحدث الفظيع والجليل، حدَثَ موته، إلى مستوى زياراتهم، وَستائرهم، وأعشيتهم، كان شاقّاً بشكلٍ فظيع على ايفان ايلييتش. شيءٌ غريب! كان في كثير من المرات، على وشك أن يصرخ بهم، وهم يُرتّبون من حوله قصصهم الصغيرة: «كفى كذباً أنتم تعلمونَ وأنا نفسي أعلم أنني أموت! كُفّوا على الأقل عن كذبكم!»، لكنّهُ لم يجرؤ قط على التصرف هكذا. إن الحدث الفظيع لاحتضاره قد انحطّ على أيدي المحيطين به، - وكان يرى ذلك جيداً - إلى مستوى مجرّد مُكدِّر من المُكَدِّرات، عدم لياقة تقريباً (كما يتصرفون تقريباً إزاء رجل تنبعث منه رائحة خبيثة وهو يدخل صالوناً) وذلك باسم «التصحيح» نفسه الذي خدمه طوال حياته. كان يرى أن لا أحد يرأفُ به لأنّ لا أحد يريد أن يفهم وضعه. كان جيراسيم وحده يفهم هذا الوضع ويرأفُ به. ولذلك كان ايفان ايليتش يشعرُ بالراحة عندما يمسك جيراسيم قدميه، طوال ليالٍ كاملة أحياناً، وَيأبى أن يذهب لينام، قائلاً:

- لاتهتم بي، ايفان ايلييتش: ما زال لديّ متسعٌ من الوقت للنوم.

أو حين يضيق وهو يخاطبه فجأة بضمير المفرد:

- لو لم تكن مريضاً لاختلف الأمر؛ لكن لِمَ لا أساعدك الآن؟

جيراسيم وحده لم يكنْ يكذب: كان كل شيء يُظهر أنه وحده يفهم ما يجري ولا يرى من الضروري إخفاء ذلك، لكنّه كان يرأف بِسيّده الضعيف، المهزول. بل لقد قال له مرة بكل صراحة عندما ألحّ ايفان ايلييتش لكي ينصرف:

- سنموت جميعاً. فلماذا لا نُكلّف أنفسنا بعض المشقة.

قال ذلك ليبيّن أن هذا العمل غير شاق لأنه يقوم به بالضبط إزاء محتضر، راجياً أن

يفعل معه الناس كذلك إذا جاء دورُهُ.

وأكثر ما كان يعذب ايفان ايليتش عدا هذا الكذب أو نتيجةً لهذا الكذب هو أن لا أحد كان يرثي له كما كان يحب. وفي بعض الأحيان، وبعد النوبات الطويلة المؤلمة، كان يود، - وإن كان مخجلاً الاعتراف بذلك أمام نفسه - قبل كل شيء أن يرثي الناس له كما يُرثى للطفل المريض. كان يشتهي أن يداعبه الناس، أن يعانقوه، أن يبكوا قربه كما يُداعَبُ الأطفال ويُعزّون. كان يعلم أنه عضوٌ في محكمة الاستئناف، وأن لحيتَهُ دبّ إليها الشيبُ، وأن ما يريده من ثَمّ مستحيل. لكنّه كان يشتهي ذلك كثيراً. وفي علاقته مع جيراسيم كان هناك شيء يُقارب ذلك. ولذلك كان حضور جيراسيم يهدِّئهُ.

كان ايفان ايليتش يودٌ لو يبكي، كان يودٌ أن يُلاطفَه الناس وأن يبكُوا على مصيره، لكن إذا بزميله «شيبيك» يدخل؛ وبدلاً من أن يبكي ايفان ايليتش وأن يرقّ، إذا به يتخذ هيئة جادة، صادقة، مستغرقة، ويعرض بجمود رأيه في قرار محكمة النقض ويُصرّ بعناد. إن هذا الكذب الذي كان سائداً من حوله وفيه سمّم، أكثر من أي شيء آخر، أيام ايفان ايليتش الأخيرة.

كان الوقت صباحاً. بديهي أن الوقت كان صباحاً، بما أن جىراسىم انصرف وأن بيير الخادم أطفأ الشموع وأزاح الستائر وشرع يرتّب الغرفة. وسواءً أكان الوقتُ صباحاً أم مساءً، أحداً أو جمعة، فإنّ الأمر واحد عند ايفان اىلىتش: كان هناك دائماً ذلك الألم الخفي الذي لا يفارقُهُ لحظة، وذلك الإحساس بأن حياته تهربُ هرباً لا ردّ له، لكنها لم تُستَنفد تماماً بعد، كان هناك دائماً ذلك الموت الرهيب البغيض الذي يقترب، الواقع الوحىد، والكذب ذاته دائماً... فما أهمّية الأيام والأسابيع وساعات النهار في هذه الحالة إذن؟

- ألا يرغب سيدي في الشاي؟

فكّر اىفان اىليتش: «إنه يرى من اللازم أن يتناول الأسيادُ الشاي صباحاً، إنه يستسيغ النظام».

واكتفى بالرد:

-لا.

- ألا يرغب سيّدي في الجلوس على الأريكة؟

وفكّر:

- إنه بحاجة إلى ترتيب الغرفة، وأنا أضايقه. أنا أمثّلُ الفوضى وسوء النظافة.

وقال فقط:

- لا. اتركني.

بقي بيير أيضاً بعض الوقت. مدّ اىفان اىلىتش يده، فبادر بيير إلى الدنو منه:

- فيم يرغب سيّدي؟

- ساعتي.

أخذ بيير الساعة التي كانت في متناول يد ايفان اىلىتش ومدّها إليه.

- الساعة الثامنة والنصف. لم ينهض أحدٌ بعد؟

- لا، ياسيدي. فلاديمير ايفانوفتش (كان هذا هو الابن) ذهب إلى المعهد، وبراسكوفيا فيودوروفنا أمرت أن نوقظها إذا ماطلبتها. هل ينبغي إيقاظها؟

- لا، لافائدة من ذلك.

وفكّر: «ليتني أتناول الشاي»...

- احمل لي شيئاً من الشاي.

اتجه بيير الى الباب. خاف اىفان اىلىتش أن يبقى وحده. «كيف أستبقيه؟ آه، نعم! الشراب!».

- بيير، دوائي!

«ولِمَ لا؟ ربما أراحني» تناول الملعقة وشرب. «لا، لن يخفّف الشرابُ عنّي. حماقات، كذبٌ ذلك كله!» قال ذلك في نفسه بعد أن أحسَّ بالمذاق التافه والمُزعج الذي كان يعرفُهُ جيداً. «لا، لم أعدْ أُومن به! لكن لِمَ هذا الألم؟ ليته يتوقف ولو للحظة !» تنهّد. عاد بيير إليه.

- لا، اذهب وائتني بالشاي.

خرج بيير. تنهّد اىفان اىلىتش بعد أن بقي وحده، لا من الألم (مع أن الألم كان مبرحاً) بقدر ما كان من القلق. «الشيء نفسه دائماً، الشيء نفسه دائماً هذه الأيام والليالي التي لا نهاية لها! ليت ذلك ينتهي بزمنٍ أسرع؟ ماذا؟ الموت، الظلمات... لا، لا! كل شيء ولا الموت!».

عندما عاد بيير بالشاي على طبق، نظر إليه ايفان اىلىتش طويلاً نظرةً شاردة غير مدرك من هو وماذا يريد. اضطّرب بيير لهذه النظرة، وعندما رأى اىفان اىلىتش اضطراب بيير ثاب إلى رشده. وقال:

- نعم، الشاي... ممتاز. ضعهُ هنا، لكن ساعدني أولاً على الاغتسال ولبس قميصٍ نظيف.

أخذ ايفان ايليتش يغتسل. وَببطء وَبِوقفات عديدة، غسلَ وجهه ويديه وأسنانه،

وامتشطَ، ونظر إلى المرآة. خاف وهو يرى نفسه في المرآة عندما لاحظ كيف التصق شعره السابل بجبينه الشاحب.

عندما بدّل قميصه لم ينظر إلى جسده، لعلمه أن خوفه سيزداد لو شاهده.

وحين انتهى من زينته ارتدى مبذله وغطّى رأسه بغطاء، وجلس في مقعد لتناول الشاي. أحسّ بالانتعاش لحظة، ولكنه ما إن شرع بتناول الشاي حتّى أحس بالمذاق نفسه وبالألم يعودُ إليه. بذل جهداً ليُنهي شايه واضطجع بعد ذلك مُمدِّداً ساقيه. اضطجع وصرف بيير.

الشيء نفسه دائماً: فتارة بريق أمل، وتارة أخرى عاصفة يأس، ودائماً هذا الألم وذلك القلق. الشيء نفسه دائماً. الوحدة تعذّبه؛ ودّ لو ينادي أحداً؛ لكنّه يعلم مسبقاً أنه إن جاء أحد ساءت الحال أيضاً. «لو حقنوني على الأقل بالمورفين! حينئذ سأنسى نفسي! سأطلب من الدكتور أن يعثر لي على شيءٍ ما. مستحيل، مستحيل أن استمرّ هكذا» !

مرّت ساعةٌ، ساعتان. دقّ الجرس في البهو. لعلّه الدكتور؟ كان الدكتور، في الواقع، غضًا، ضخماً، مفعماً بالطاقة، فرحاً، وكأنه يقول: «أنتَ مخطىءٌ بقلقك. سوف نُصلح ذلك كله.» إن الدكتور يعلم أن هذا التعبير ليس لائقاً هنا، لكنّه اتخذه من مرّةٍ ولا يستطيع أن ينزعه بعد ذلك، مثل سيّد ارتدى ثيابه منذ الصباح ليقوم بزياراته.

فرك الدكتور يديه بانشراح ورضا، وقال:

- ما زلتُ متجمداً. فَالصقيعُ شديد. اسمح لي أن أتدفّأَ قليلاً.

وكأنّما كان يكفي الانتظار إلى أن يتدفأ، وأنّ كل شيء سيُسوّى حالما يتدفأ. وسأل:

- حسناً! كيف الحال؟

ايفان ايليتش يعلم جيداً أن الدكتور يريد أن يقول: كيف حال أمورنا الصغيرة؟ لكنّه تبيّن أنه لا يستطيع التعبير هكذا فقال:

- كيف قضيتَ الليل؟

نظر ايفان ايليتش إلى الدكتور نظرة استفهام:

«ألا تستحي حقاً من أن تكذب عليّ هكذا؟»

لكنّ الطبيب يأبى أن يفهم.

فيقول ايفان ايليتش:

- على أسوأ حال، كالعادة. فالألم لا يزول ولا يريد أن ينقطع. ليتنا نستطيع أن نفعل شيئاً ما.

هذه حالكم دائماً، أيها المرضى. حسناً! أظن أنّني تدفأت الآن؛ براسكوفيا فيودوروفنا نفسها التي تتقنُ عملها لا تستطيع أن تفعل شيئاً إزاء حرارتي. حسناً! صباح الخير.

شدّ الدكتور على يد ايفان ايليتش. ثم تخلّى عن هيئته المرحة وأخذ يفحص المريض وهو رصين الطلعة؛ تحرّى نبضه، وأخذ حرارته وتسمع إلى قلبه وتنفّسه كما يفعل دائماً.

ويعلم ايفان ايليتش أن ذلك كله ماهو إلا كذب؛ لكن عندما ركع الدكتور وانحنى عليه وأسند أذنه هنا وهناك ونفّذ بمظهرٍ جاد عدداً من التمرينات، انساق ايفان ايليتش معه، كما كان ينساق أحياناً لخطب المحامين مع علمه الأكيد بكذبهم وبسبب كذبهم.

كان الدكتور راكعاً أمام الأريكة متابعاً معالجاته عندما وافى حفيفُ فستان على العتبة وسُمعت براسكوفيا فيودوروفنا تلوم بيير لأنه لم يُنبِّئها بوصول الدكتور.

وتدخلُ وتقبِّلُ زوجها وتشرعُ على الفور في تأكيدها له أنها نهضت منذ زمن بعيد وأن سوء تفاهم قد حدث.

وينظر ايفان ايليتش إليها ويفحصها كلها ويلومها في داخلها على بياض سحنتها، وعلى وجنتيها المدوّرتين، وعلى نضارة ذراعيها وعنقها، ولمعان شعرها، وبريق عينيها الممتلئتين بالحياة. إنه يكرهها بكل قوى نفسه. ومسّها يثير فيه انتفاضة الغيظ التي تجعله يتألم.

إن موقفها من ايفان ايليتش ومرضه لم يتغيّر. وكما أن الدكتور اصطنع إزاء مرضاه قاعدةً للسلوك لا يمكنه التخلص منها، فكذلك تبنّت موقفاً مفاده أن تقول إن ايفان ايليتش لا يفعل بعض الأشياء التي كان ينبغي أن يفعلها، وأنه مسؤول هو نفسه عن وضعه، وذلك ما كانت تلومه عليه بلهجةٍ وديّة. وكان يستحيل عليه أن

يتخلص من تكوينه.

- إنه لا يسمع ما يُقال له، ولا يتناول أدويته بانتظام. وهو يتخذ، على الخصوص، في نومه وضعاً ضاراً بالتأكيد. إنه يرفع رجليه إلى الأعلى.

وروت أنه كان يُجبر جيراسيم على أن يمسك برجليه مرفوعتين.

ابتسم الدكتور ابتسامةً مترفّعة ومُشفقة، كانت تعني: «ما العمل؟ إنّ هؤلاء المرضى يخترعون حماقات، لكن ينبغي أن نعذرهم.».

عندما انتهى الطبيب من فحصه نظر إلى ساعته، وحينئذ أعلنت براسكوفيا فيودوروفنا لايفان ايلىتش أنه مهما يقل فسوف تستدعي الطبيب الشهير الذي سيفحصه في هذا اليوم بالذات مع ميشيل دانيلوفتش (طبيب الأسرة).

- لاتعترضْ، أرجوك. إني أفعلُ ذلك من أجلي أنا.

قالت ذلك بسخرية وكأنها تلمِّح أنها تفعل كل شيء من أجله وأنّه من ثَمّ لا يحقّ له أن يقاوم.

ظل صامتاً، متجهّم الوجه. أحسّ أن الكذب الذي يحيط به قد تشوّش بحيث غدا من الصعب أن يفهم شيئاً منه.

كل ما كانت تفعله إنما كانت تفعله من أجل مصلحته هو، لكنّها كانت تقول وهي تشير إلى ذلك: إنها إنّما كانت تفعله من أجلها هيَ باعتباره شيئاً غير عادي بحيث كان ينبغي له أن يفهمَ العكس.

والواقع أن الدكتور الشهير أقبل في الحادية عشرة والنصف، وبدأتْ من جديد الفحوصات وكذلك المشاورات، بحضوره وفي الغرفة المجاورة، بصدد الكلية والزائدة. كانت الأسئلة والأجوبة تُتبادل بلهجة رسمية جداً حتى إن المسألة الحقيقية، مسألة، الحياة والموت التي كانت تطرح نفسها وحدها على ايفان ايلىتش، أخلتْ مكانها مرّةً أخرى لمسألة الكلية والزائدة اللتين لم تعودا تعملان، على ما يبدو، كما ينبغي لهما، لكنّ ميشيل دانيلوفتش والطبيب الشهىر سىردّانهما مباشرةً إلى جادة الصواب.

ودّعهم الطبيب الشهير بوجهٍ رصين وإن لم يكن مُثبِّطاً. وردّاً على سؤال خجل طرحه علىه ايفان ايلىتش وعيناه تبرقان خشيةً ورجاءً:

- هل هناك أمل في الشفاء؟

أجاب:

- إنه لا يمكن أن نضمنَ شيئاً، لكن هناك حظّا في الشفاء.

إن النظرة المحمّلة بالأمل التي أرسلها ايفان ايليتش في إثر الطبيب كانت مثيرة للشفقة إلى حد أن براسكوفيا فيودوروفنا أخذت تبكي وهي تُرافق الطبيب الشهير لِتُسلِّمه أجرته.

لم تكن الثقة التي أوحت بها الكلمات المشجّعة للطبيب الشهير طويلة الأمد. كان هناك دائماً الغرفة نفسها، واللوحات نفسها، والستائر نفسها، والأوراق نفسها على الجدران وهذا الجسد نفسه متوجّعاً، متألماً. لقد أخذ ايفان ايليتش يتأوّه.. فأُعطي حقنة مورفين أسلمته إلى حالة من النعاس.

عندما صحا، كان الظلام قد أخذ يخيّم، فجيء بطعامه. حمل نفسه حملاً على تناول شيءٍ من الحساء: مرّت الساعاتُ متشاكلةً. وهبط الليلُ.

بعد الطعام، في الساعة السابعة، دخلت الغرفة براسكوفيا فيودوروفنا، بفستان السهرة، وصدرها القوي محزوم، وآثار البودرة على وجهها. أخطرتهُ من الصباح أنهم سيذهبون إلى المسرح: لقد وصلت سمساره برنار، وكانت لهم مقصورة، مستأجرة بناء على إلحاح ايفان ايليتش. لكنّه نسيَ ذلك، وأهانتهُ هذه الزينة الآن. كتم الإهانة مع ذلك عندما تذكّر أنه ألحّ هو نفسه للحصول على هذه المقصورة ومشاهدة العرض الذي كان يحمل إلى الأولاد المسرّة التعليمية والجمالية.

دخلت براسكوفيا فيودوروفنا وهي جدٌ راضيةً عن نفسها، لكنّها دخلتْ وفي وجهها أيضاً تعبيرٌ مذنبٌ قليلاً. جلستْ واستعلمتْ عن صحته؛ أدرك أن ذلك لكي تقول شيئاً ما لا لتعلم كيف حاله، لأنها كانت تعلم أنه لا يمكن أن يطرأ عليها جديد. وبعد ذلك أخذت تتحدّث عما يشغل بالها: إنها ما كانت لتذهب إلى المسرح لولا أن المقصورة مستأجرة وأن من المستحيل ترك ابنتها تذهب وحدها مع من يطلب يدها، بيتر يشتييف. وكانت ستُسرٌ كثيراً لو ظلّت بجنبه! على شرط أن يتبع في غيابها تعليمات الطبيب!.

. - بالمناسبة ! فيودور ديميتريفتش (بيتر يشتييف) يودٌ لو يراك، وكذلك «ليزا»... ممكن؟

- ليدخلا.

دخلت ليزا لابسةً بأناقة وقد تعرّى جسدُها الفتيٌ هذا الجسد الذي طالما آلم ايفان ايليتش والذي كانت تعرضه للأنظار. كانت طويلة، معافاة، عاشقة كما يبدو، وغاضبة على المرض والأوجاع والموت التي تقف عائقاً في وجه سعادتها.

دخل فيودور دميتريفتش أيضاً؛ كان في الثياب الرسمية وشعره مصفّف على نمط «كابول»، وكان عنقه الطويل الذي برزت عروقه غارقاً في ياقة عالية بيضاء، وكان صدره مغطّى بواقية عريضة منشّاة ؛ وكان البنطالُ الضيق الأسود يشدٌ فخذيه المتينتين شداً؛ وكان يُمسك بيديه قفازاً أبيض وقبّعة رسمية.

انسل خلفهما طالب المعهد ببذلةٍ جديدة، المسكين، وهو يلبس قفازاً حديث العهد، وحول عينيه دائرةٌ سوداء كان ايفان ايليتش يعلم دلالتها.

كان يحسٌ دائماً بشفقةٍ عظيمةٍ على ابنه الذي كانتْ ترعبه النظرة الخائفة المشفقة. وفيما عدا جيراسيم، كان هذا الابن - على ما بدا لايفان ايليتش - هو الذي يفهمه ويشفق عليه.

جلس الجميعُ؛ استعلموا مرّة أخرى عن صحته. ثم صمتوا. سألت ليزا أمها أين المنظار، وتلا ذلك نقاش بين الأم وابنتها اللتين تبادلتا تهمة إضاعته. كان ذلك غير مستحب.

سأله فيودور ديميتريفتش إن كان قد رأى ساره برنار. لم يفهم ايفان ايليتش السؤال في البدء، ثم قال:

- لا، وأنتَ هل رأيتها؟

- نعم، في «ادريين ليكوفرير» (1).

قالت براسكوفيا فيودوروفنا إنها كانت رائعة بخاصة في هذا الدور أو ذاك. حينئذ أخذوا يتحدّثون عن أناقة تمثيلها وواقعيته؛ وكان الحديث عادياً كالحديث الذي يدور في مثل هذه الحالات.

في وسط الحديث نظر فيودور ديميتريفتش إلى ايفان ايليتش وصمتَ. نظر إليه الآخرون أيضاً وصمتوا مثله. كان ايفان ايليتش يحدّقُ فيهم، وعيناه تلتمعان، وقد بدا مغتاظاً. كان ينبغي إصلاح الأشياء، لكن ذلك كان مستحيلاً. كان ينبغي أن يكفّوا عن الصمت على هذا النحو أو ذاك. فلم يُقدِم أحد على ذلك؛ كان الجميع يخافون أن يُبدّدوا فجأة الكذب الصحيح وأن يُظهِروا هكذا الواقع بوضوح. قرّرت ذلك ليزا قبل

غيرها. أقلعتْ عن الصمت. أرادتْ أن تُخفي ما أحسّ به الجميع لكنّها فضحتْ نفسها وقالت وهي تنظر إلى الساعة، هدية أبيها، وتُبادل الشاب ابتسامةً خفية يفهمانها وحدهما.

- مع ذلك، ليتنا نذهب.

ثم نهضتْ وفستانها يحفّ حفيفاً. نهض الجميع وودّعوا ايفان ايليتش وخرجوا.

عندما غادروا الغرفة شعر ايفان ايليتش بالانفراج: اختفى الكذبُ، خرج معهم. لكن الألم باقٍ. الأوجاع نفسها دائماً، والرعبُ نفسه. وما من عزاء.

تتابعتْ الدقائقُ والساعات، دون تغيير، بلا نهاية، وبدت النهاية المحتومة التي تشتدّ شراستُها.

رد على بيير:

- نعم، ابعث لي جيراسيم.

---

(1) - مسرحية ألفها «سكريب» 1849، مثّلتها بنجاح ساره برنار (1844 - 1923) أثناء جولاتها في روسيا.

- 9 -

عادت براسكوفيا فيودوروفنا في ساعة متأخرة من الليل. دخلت على رؤوس أصابعها، لكنه سمعها. فتح عينيه وما لبث أن أغمضها. أرادتْ أن تصرف جىراسيم وتأخذ مكانه، ففتح عينيه ثانيةً وقال:

- لا، انصرفي.

- أتتألمُ كثيراً؟

- ما أهمية ذلك!

- خُذْ شيئاً من الأفيون.

وافق وجرع الجرعة. خرجتْ. ظل حتّى الساعة الثالثة غارقاً في خدرٍ مؤلم. بدا له أنه يُدفَع دفعةً موجعةً إلى كيس أسود، ضيّق وعميق؛ إنه يُدفَع لكنه لا يفلح في المرور بالكيس. ويسبّب له هذا الشيء المرعب ألماً حاداً. ويخاف، ويودّ لو يسقط في الكيس، ويقاوم ويبذل وسعه ليمر عبر الفتحة الضيقة. ثم ينزلق فجاة ويسقط، ويثوب إلى رشده.

كان جيراسيم ما يزال هنا، عند قائمة السرير، غافياً، هادئاً، صابراً. وكان هو ممدّداً على ظهره، مهزول القدمين، بجوربيهما، وهما مستندتان إلى كتفي جيراسيم. وما تزال الشمعة في مكانها تُغطيها كمّةٌ. وذلك الألم الذي يُحتمل لا يريم. همس:

- انصرفْ، جىراسىم.

- لاباس عليّ، سأبقى قليلاً.

- لا، انصرفْ.

رفع قدميه عن كتفي جيراسيم، واضطجع على جنبه، ويده تحت خدّه، ورقّ لحاله. انتظر فقط أن يتركه جيراسيم ؛ حينئذ ترك نفسه على سجيّتها وأخذ يبكي كالطفل. بكى على حالته الميؤوس منها، على وحدته المرعبة، على قسوة الناس، على قسوة الله

الذي تخلّى عنه. «لم فعلتَ ذلك كله؟ لم أتىت بي إلى هنا؟ لماذا، لماذا تعذبني هكذا؟».

لم يكن ينتظر جواباً، وبكى لأنه لا جواب عن أسئلته ولا يمكن أن يكون هناك جواب. اشتدّ الألم، لكنه لم يتحرك ولم يدعُ أحداً. كان يقول في نفسه: «حسناً! اضرب! اضرب بقوة أكبر! اضربني ! لكن لماذا؟ وماذا فعلتُ لك؟ لماذا؟»

ثم هدأَ وكفّ عن البكاء، بل كفّ عن التنفس وغدا كلّه آذاناً، وكأنّما كان يصيخُ السمع لصوتٍ صامت، لصوتِ نفسه، لتقلّب الأفكار التي تتصاعد فيه.

«إلام تحتاج؟» هذه أول فكرة واضحة يمكن أن يُعبّر عنها بالكلمات، سمعها. «إلامَ تحتاج؟ إلامَ تحتاج؟» «إلامَ؟» ردّد ذلك وأجاب: «ألّا أتألم. أن أحيا!».

وغدا أيضاً أشدّ انتباهاً، وقد توتّر كيانه إلى حد أن الألم لم يفلح في صرف انتباهه.

سأل صوتُ النفس: «أن تحيا؟ كيف تحيا؟»

«نعم، أن أحيا، كما كنتُ أحيا سابقاً، على نحو سارٍ، سهلٍ.».

سأل الصوتُ: «كيف كنت تحيا على نحو سارٍ وسهل؟».

أخذ يستعرض بخياله أفضل لحظات حياته السّارة. لكنّ الشيء الغريب أنّ تلك اللحظات اتخذتْ في نظره مظهراً مختلفاً كل الاختلاف عمّا كانت عليه قديماً. جميع اللحظات ما عدا ذكريات طفولته الأولى. كان في طفولته شيءٌ جميلٌ حقّاً. شيءٌ جديرٌ بأن يعينه على الحياة الآن لو استطاع بعثه. لكن الذي عاش ذلك الشيء لم يعد موجوداً: ربما كان المعنيٌ شخصاً آخر.

فما أن بدأت سلسلة الأحداث التي آلت في النهاية إلى ايفان ايليتش الحالي، حتى تبدّدتْ الآن أمام عينه جميع الأفراح التي عاشها والتي بدتْ له آنذاك أفراحاً، وتحوّلت إلى شيءٍ تافهٍ بل وحقير.

وكلما كانت ذكريات ايفان ايلىتش تبتعدُ عن طفولته، وتقتربُ من الحاضر بدت له الأفراح التي عاشها مشبوهةً وفارغة. بدأ بمدرسة الحقوق: هناك عرف أيضاً لحظات طيّبة حقاً؛ هناك عرف الفرح والصداقة والأمل. لكنّ هذه اللحظات في الصفوف العليا أخذت تندر. وفيما بعد، في زمن خدمته مع الحاكم، كانت له بعض الدقائق الجميلة: أحبّ امرأة. ثم اختلط كل شيء، وغدت اللحظات الجميلة مرة أخرى أندر، وأندر...

زواجه... مصادفة؛ وخيبة الآمال، ونَفَسُ امرأته النتن، والشهوانية، والنفاق... ثم خدمته، الكئيبة جداً، وهموم المال. دام ذلك سنة، سنتين، عشر سنوات. الشيء نفسه دائماً. كانت الحياة، كلّما مرت السنون، تزدادُ فراغاً وكآبة. «كنتُ كأنّي أهبطُ سفحاً وأنا أظنّ أنني أصعد. كنت أصعدُ، بالفعل، في نظر الرأي العام، لكني في الحقيقة، كنتُ أنزلق إلى الأسفل، وكانت الحياة تهرب مني.... وها أنذا انتهى كلّ شيء. فمُتْ الآن!».

«لكن ماذا يعني ذلك، ىا ترى؟ لماذا؟ مستحيل! لا يمكن أن تكون الحياة بمثل هذا الغباء والحقارة. وإذا كانت كذلك فلم كان لابد من الموت مع الألم؟ هناك شيء على غير ما يرام. لعلّي لم أعشْ كما ينبغي لي أن أعيش؟ ذلك غير ممكن، بما أني فعلتُ دائماً ماينبغي فعله.».

ولم يلبث أن طرد الحلّ الوحيد، حلّ لغز الحياة والموت باعتباره غىر معقول: «ماذا تريد الآن؟ أن تحيا؟ وكيف تحيا؟ أن تحيا كما كنت تحيا إذا كنتَ قاضياً، عندما كان الحاجبُ يعلن: «محكمة»!» وردّد في نفسه: «المحكمة! المحكمة! ها هو ذا الحكم. مع أني لستُ مذنباً! لماذا؟» صرخَ بذلك كله وهو محنق.

كفّ عن البكاء، وأخذ يفكر، وقد أدار وجهه إلى الجدار، بالشيء نفسه: «لماذا؟ لماذا هذا الشيء الرهيب؟».

لكنه لا يجد جواباً مهما فعل. وعندما كانت تنبعثُ فيه هذه الفكرة: - وما أكثر ما حدث له ذلك - أنّ كل ذلك ناجمٌ من أنه لم يعشْ، كان يتذكّر على الفور استقامة حياته ويطرد بعيداً هذه الفكرة الغريبة.

- 10 -

مرّ أسبوعان أيضاً. لم يكن ايفان ايليتش يفارق الأريكة التي ظل مضطجعاً عليها، إذ لم يشأ أن يبقى في سريره. كان يتألم وهو ممدّد تقرىباً ووجهه إلى الجدار، وحيداً، يتألم آلامه المستعصية على الحل، كان يغوص، وحيداً، في أفكاره المستعصية على الحل.

«ماهذا، ياترى؟ أهو الموتُ حقّاً؟»

فيجيبهُ الصوتُ الداخلي: «نعم، هذا هو الموت» - «لكن لمَ هذه الآلام؟» فيجيبه الصوتُ: «هكذا، من أجل لاشيء.»

منذ بداية مرضه، منذ اللحظة التي ذهب فيها اىفان اىليتش إلى الطبيب، انشقّتْ حياتُه الداخلية، منتقلةً تباعاً من اليأس وانتظار الموت المرعب وغير المفهوم إلى الرجاء واستعمال ذكائه كله لعمل أعضائه. فتارةً لم يكن يفكّر إلا في كليته وأمعائه التي كانت ترفض موقتاً أن تقوم بوظيفتها؛ وتارةً أخرى، لم يكن أمام عينيه سوى هذا الموت الشرس، الذي لا يُفهَم، والذي لا يمكن أن يخلّصه منه شيء.

هاتان الحالتان الفكريتان تناوبتا فيه منذ بداية مرضه، لكن كلما كان مرضه يتفاقم كانت آماله تبدو له خيالية ووهمية، بينما كان الشعور بالموت القريب يفرض نفسه عليه بواقعية أكبر.

كان يكفيه أن يتذكر ما كان عليه قبل ثلاثة أشهر، والانتظام الذي تم به الانحدار، لكي يختفي على الفور كلُّ إمكانٍ للأمل...

في هذه الآونة الأخيرة من وحدته، هذه الوحدة وسط مدينة كبيرة، ووسط أصدقائه وأسرته، وحدته التي لا يمكن أن تكون أتَمّ في أعماق البحر أو الأرض، في الآونة الأخيرة من هذه الوحدة الرهيبة، لم يكن ايفان اىلىتش يعيش، ووجهه مستديرٌ إلى مسند أريكته، إلا في الماضي، كان يبدأ دائماً بأقرب الأحداث إليه ليعود بعدها بخياله إلى طفولته، ويقف عندها. وإذا بالخوخ المطبوخ الذي قُدِّم له في هذا اليوم، يُذكّر بالخوخ المجفّف المجعّد في طفولته، وطعمه الخاص، واللعاب الذي يملأ فمه عندما يصل

إلى النواة؛ وكانت هذه الذكرى تجرٌ غيرها من الفترة نفسها: مربيته، أخاه، ولعبهما... «لا، لا ينبغي أن يفكر في هذ الأشياء جميعاً. فذلك مؤلمٌ ألماً يتجاوز الحد». كان يقول ذلك في نفسه ويعود إلى الحاضر. الأزرار على مسند الأريكة وطيّات الجلد الدقيقة. «الجلد غالٍ وقليل المتانة. تخاصمنا بهذا الصدد. لكن كان الموضوع جلداً آخر وخصاماً آخر، عندما مزّقنا محفظة والدنا وَعوقبنا، وحملتْ إلينا ماما الحلوى...» ويعود فينغمس في ذكريات طفولته التي كانت تؤلمه، فيبذل وسعه ليطردها وليفكر في شيءٍ آخر.

وفي موازاة سلسلة الذكريات هذه كانت تُنشَر سلسلةٌ أخرى تتصل بتطوّر مرضه وتفاقمه. وفي هذه الحالة أيضاً، كان كلّما تراجع في مجرى الزمن رأى نفسه أكثر حياةً. كان أفضل وأكثر حياة. كان الخير والحياة يختلطان وفكّر: «فكما أن آلامي كانت تشتدٌ كانت حياتي تسوءُ أيضاً. وليس هناك سوى نقطة واحدة مضيئة، هناك في بداية وجودي، ثم يغدو كل شيء أسود، يزداد سواداً أبداً، ويزداد سرعةً أبداً. بعكس مربع مسافات البعد عن الموت.» كذلك كان يقول ايفان ايليتش في نفسه. وانطبعتْ في نفسه صورة حجر يسقط بسرعةٍ متزايدة. إن الحياة، إن سلسلةً من الأوجاع المتعاظمة تندفع بسرعة متزايدة نحو غايتها الأخيرة، الوجع الأرهب.

«إني أسقط...» انتفضَ وتحرك وحاول أن يقاوم لكنه كان يعلم أن المقاومة غير ممكنة، وحدّق في مسند الأريكة بعينيه المتعبتين اللتين لم تكونا تستطيعان ألّا تنظرا أمامهما، وانتظر، انتظر ذلك الشيء الفظيع السقوط، الصدمة، الدمار.

قال في نفسه: «المقاومة غير ممكنة، لكن ليتني أستطيع على الأقل فهم لماذا كل ذلك؟ فذلك أيضاً غير ممكن. يمكن تفسير ذلك لو قيل إنني لم أعش كما كان ينبغي لي أن أعيش. أما ذلك فهو غير مقبول البتّة.» وإنما فكّر هكذا لأنه تذكّر صحة حياته وانتظامها واستقامتها. وردّد في نفسه متبسّماً بشفتيه فقط وكأن هنا من ينظر إلى هذه الابتسامة ويُؤخَذ بها: «ذلك غير مقبول بتاتاً. لا تفسيرَ لذلك! الأوجاع، الموت... لماذا؟».

- 11 -

مرت ثلاثة أسابيع على هذا المنوال، وفي أثنائها جرى ذلك الحدث الذي طالما ابتغاه ايفان ايليتش وزوجته: ذلك أن بيتر تشتييف. خطب الفتاة رسمياً. كان ذلك مساءً. في اليوم التالي، دخلت براسكوفيا فيودوروفنا غرفة زوجها، وهي تتساءل كيف تُبلِغه أمر الخطبة. لكن في هذه الليلة تغيّرت، ساءت حالة ايفان ايليتش، فوجدته براسكوفيا فيودوروفنا على أريكته، في وضعٍ جديد: كان مستلقياً على ظهره، يتأوّه و يحدّق النظر أمامه.

أخذت تحدّثه عن الأدوية. صعّد نظره إليها، فلم تُكمل الجملة التي بدأتها لفرط ما عبّرت هذه النظرة عن الكراهية، ولاسيما نحوها.

- باسم المسيح، دعيني أمتْ بسلام.

أرادت أن تنصرف، لكن ابنتها دخلت في هذه اللحظة ودنت من أبيها لتسلّم عليه. نظر إلى البنت نظرته إلى الأم، وردًا على أسئلتها عن صحته أجاب بجفاف أنه سيخلّصهما من حضوره عمّا قريب. فصمتتا كلتاهما وجلستا بضع لحظات وخرجتا.

قالت ليزا لأمها:

- فيم أذنبنا؟ كأنّ الغلطة غلطتنا! إني أشفق على بابا. لكن لماذا يجعلنا نتألم؟

جاء الدكتور في ساعته المعتادة، فلم يجبه ايفان ايليتش إلا بـ «نعم» أو «لا»، دون أن يرفع عنه نظرته المُثقلة بالكراهية؛ وأخيراً قال له:

- أنت تعلمُ جيداً أنك لا تستطيع أن تُعينَني؟ دعني وشأني.

قال الدكتور:

- يمكننا تخفيف الآلام.

- وهذا أيضاً لايمكنك أن تفعله، فدعني إذن!

خرج الدكتور إلى الصالون وأعلن لبراسكوفيا فيودوروفنا أن حالته ساءتْ وأنه لم

يبقَ سوى دواء واحد هو الأفيون، لتخفيف الآلام التي لا بدّ أن تكون رهيبة.

قال الدكتور إن أوجاع ايفان ايليتش الجسدية رهيبة، وماقاله حقٌّ؛ لكن أوجاعه الروحية كانت أرهب من آلامه الجسدية، وهي التي كانت تعذبه على وجه الخصوص.

إن أوجاعه الروحية جاءت هذه الليلة وهو ينظر إلى رأس جيراسيم ذي الوجنتين البارزتين حين أخذ ينعس، وخطر له فجأة هذا الخاطر: «وإذا لم تكن حياتي حقاً، حياتي الواعية، كما ينبغي لها أن تكون؟».

خطر بباله أن ما كان يعدّه حتى الآن استحالة مطلقة - أنه قد عاش على نحوٍ مختلف عما كان ينبغي له أن يعيش - يمكنه أن يكون هو الحقيقة. وأنّ الجهود التي بذلها في مقاومة ما كان الأشخاص المتقلّدون أرفع المناصب يعدونه صالحاً، وهي جهود لم تكدْ تُلحظ وكان يكبتها من فوره، وربما كانت حقيقية وكل ما سواها كذب... وربما لم تكن خدمته وحياته المنظّمة وأسرته ومصالحه الدنيوية سوى كذب. لقد حاول أن يدافع عن جميع هذه الأشياء أمام نفسه. لكنّه أحس فجأة بتهافت ما أراد الدفاع عنه. فليس في ذلك ما يُدافَع عنه.

قال في نفسه:

«إذا كان الأمرُ كذلك، وإذا كنتُ أفارقُ الحياة بشعور مَنْ أضاع وخرّب كل ما مُنحه، وإذا كان لا سبيل إلى إصلاح مافات، فماذا حينئذ؟»

استلقى على ظهره وأخذ يتفحّص حياته من وجهة نظرٍ جديدةٍ كل الجدّة. فعندما رأى في الصباح خادمه، ثم امرأته، ثم ابنته، ثم الطبيب، كانت كل حركة من حركاتهم تؤكد له الحقيقة الفظيعة التي انكشفت له في هذه الليلة. كان يرى نفسه فيهم، وكانت حياته ما كانت عليه حياتهم؛ ورأى بوضوح أن الأمر لم يكن كذلك وأنه كان كذبة هائلة، مرعبة، تُخفي الحياة والموت. كان هذا الشعور يزيد ويضاعف آلامه الجسدية. كان يتأوّه ويضطرب ويجهد في أن يقلع ثيابه التي كانت تضغط عليه وتخنقه، كما بدا له. ولذلك كره جميع أقربائه.

أُعطيَ جرعة قوية من الأفيون، أغفى. لكن ذلك عاد من جديد ساعة الغداء: طرد الجميع خارج غرفته وتقلّب على أريكته ذات اليمين وذات الشمال.

دنت منه براسكوفيا فيودوروفنا وقالت:

- جان، يا صاحبي، افعل ذلك من أجلي (من أجلي؟). فذلك لايؤذي، بل إنّ ذلك قد

يعزّي. ثم إنّ الناس المعافين أنفسهم...

شخَصَ بعينيه:

- ماذا - أن أعترف؟ لماذا؟ لا يجب... بيد أن...

أخذت تبكي.

- نعم، ياصاحبي. سأدعو كاهننا. فهو عظيم اللطف.

- ممتاز، جيد.

عندما جاء الكاهنُ وعرّفه، عاد إليه هدوءه، بدا له أنّه تخفّف من شكوكه، وتبعاً لذلك من آلامه. بل لقد لاح له الأمل دقيقة. فأخذ يفكر من جديد في الزائدة ووسائل شفائها. تناول القربان والدموع في عينيه.

عندما أُضجِع بعد التناول، أحسّ بالتحسن للحظة، وبدا الأمل يراوده. فكّر في العملية التي يقترحونها عليه. قال في نفسه: «أن أعيش؟ أريد أن أعيش!».

جاءت امرأته تهنّئه. ولفظتْ الكلمات المعتادة في هذه الحالة وأضافت:

- أنت تشعر بالتحسّن، أليس كذلك؟

قال: «نعم»، دون أن ينظر إليها.

كانت ثيابه وشخصه كله وتعبير وجهه وجرس صوته كان كل شيء يقول له: «ليس الأمر كذلك؛ كل ما كان يجعلك تحيا، كل ما تحيا منه، ليس سوى كذب يخفي عنك الحياة والموت.» وما إن قيلَ ذلك حتى تجدّدت كراهيته، ومع الكراهية الآلام الجسدية، ومع الآلام، الشعور بالموت الوشيك، المحتوم. عادت الآلام: كان ذلك ينخره، يثقبه من جهة الى جهة، ويقطع أنفاسه.

كان تعبير وجهه عندما قال «نعم» فظيعاً. إذ قالها وهو يحدّق في عينيها بحيوية غير عادية بالنسبة إلى حالة ضعفه، انقلب ودفن وجهه في الوسادة، وصاح:

- اذهبي، اذهبي، دعيني!

- 12 -

بدءاً من هذه اللحظة بدأت هذه الصرخات التي دامت ثلاثة أيام بلا انقطاع، وكانت فظيعة بحيث لا يمكن الاستماع إليها عبر عدّة أبواب مغلقة دون أن تهزّ المستمع هزّاً. وفي الدقيقة نفسها التي أجاب فيها امرأته أدرك أنه هالك وأن العودة مستحيلة وأن النهاية آتية هذه المرّة، وأن شكوكه لم تشأ أن تسكن، وظلت دون حل.

صرخ بنبراتٍ شتى: «آه! آه! آه!» بدأ صياحه: «لا أريد!» وانتهى بهذه النبرة: «آ...آ...».

طوال هذه الأيام الثلاثة التي لم يكن الزمن موجوداً أثناءها، كان يتخبّط في ذلك الكيس الأسود الذي كانت تدخله فيه قوةٌ خفيّةٌ لا تُقهر. كان يتخبّط كما يتخبط بين يدي الجلاد محكومٌ بالإعدام، وهو يعلم أنه لا يمكن أن ينجو. وكلما كانت الدقائق تمر كان يحس أنه بالرغم من جميع جهوده يزيد قرباً مما ملأه رعباً. كان يحسُّ أن عذاباته تنجمُ عن دفعه في هذا الثقب الأسود، وأكثر من ذلك عن أنه لا يفلح في دخوله، وما كان يمنعه من الدخول هو شعوره بأن حياته كانت صالحة. كان هذا التسويغ لحياته هو الذي يثنيه ويمنعه من المواجهة ويعذبّه أكثر من غيره.

وفجأة ضربته بعنف قوةٌ مجهولة في صدره، في جنبه، وقطعت تنفّسه؛ سقط منقلباً في الثقب وهناك، في أعمق القاع، التمعَ شيءٌ. فأحسّ بما أحسّ به قديماً في القطار عندما نتصور أننا نتقدم بينما نحن نتأخر ونتعرف فجأة الاتجاه الصحيح.

قال في نفسه: «نعم، لم يكن «ذلك» على الإطلاق. لكن لا بأس، فإن «ذلك» يمكن أن يُفعَل أيضاً».

ثم تساءل وما «ذلك»؟

وسكن فجأةً.

كان ذلك في نهاية اليوم الثالث، قبل موته بساعتين. في هذه اللحظة بالذات انسلّ طالبُ المعهد برفق إلى الغرفة ودنا من السرير. لم يكفّ المحتضر عن إطلاق الصرخات

اليائسة وهو يحرّك ذراعيه. صادفت يدُهُ رأسَ الولد؛ أمسك بها طالبُ المعهد وأطبق شفتيه عليها وشرع يبكي.

في هذه اللحظة بالضبط سقط ايفان ايلّيتش، شاهدَ النور واكتشف أن حياته لم تكن كما كان ينبغي أن تكون، لكن إصلاح ما فات ما يزال ممكناً. تساءل:

«ما ذلك؟». سكنتْ نفسه وَأصاخَ السمع. حينئذ أحسّ أن هناك من يلثم له يده. فتح عينيه ونظر إلى ابنه، فأشفقَ عليه. اقتربتْ امرأتُه منه فنظر إليها أيضاً. تفرّست فيه بيأسٍ فاغرةَ الفم، وقد تبلّل خدّاها وأنفها بالدموع.

فكّر: «نعم، إني أعذّبُهم. هُم يشفقونَ عليّ؛ لكن من الأفضل لهم أن أموت». أراد أن يقول لهم ذلك، لكنّه لم يقوَ عليه. وفكّر: «ثمّ، لماذا الكلام. يجب أن تفعل ذلك». أشار بنظرته إلى ابنه وامرأته وقال:

ائتيني به... أنا أشفق... عليك أيضاً.

أراد أن يضيف: «سامحيني!» لكنّه قال:

- دعيهِ يمرّ. وعجزَ عن استدراك ذلك فأشار بيده لعلمه أنه سيُفهم ممن سيفهمه.

وبغتةً، أحسّ بوضوح أن ما كان يعذّبه ويضغط عليه قد تبدّد، وأنه ينسابُ خارجاً عنه دفعةً واحدة من جميع الجهات. إنه يشفقُ عليهم. وينبغي له ألّا يجعلهم يتألمون بعد الآن. ينبغي أن يُخلّصهم ويُخلّص نفسَه من عذاباتهم. فكّر: «ما أحسن ذلك وما أبسطه!». «لكن ماذا أفعل به «هو»؟ حسناً! أين أنت؟ أين أنت، ىا ألمي؟».

وأرهفَ انتباهَهُ:

«آه! ها هو ذا! حسناً ليبقَ هنا! والموت؟ أين هو؟».

فتّش عن رعبه المعتاد فلم يعثر عليه. «أين هو؟ أي موت؟». لم يعد يخاف لأن الموت قد مات أيضاً.

بدلاً من الموت رأى النور.

وقال فجأة بصوتٍ عالٍ: «ها هو ذا إذن. يا للفرح!».

حدث ذلك كله له في لحظةٍ واحدة، ولم تتغيّر بعد ذلك دلالة هذه اللحظة. لكن احتضاره بالنسبة إلى الذين يُحدّقون به، دامَ ساعتين. انبعثتْ من صدره حشرجات،

وارتعشَ جسمُه العاري من اللحم. ثم تباعدتْ شيئاً فشيئاً الانتفاضاتُ وَالحشرجات.

قال أحدهم:

انتهى الأمر.

سمع هاتين الكلمتين وردّدهما في نفسه قائلاً:

«انتهى الموت! مات الموت».

تنشّق الهواء بعمق ولم يُنهِ تنشّقه. تصلّبَ ومات.

جدول المحتويات

- 1 -
- 2 -
- 3 -
- 4 -
- 5 -
- 6 -
- 7 -
- 8 -
- 9 -
- 10 -
- 11 -
- 12 -